جيل الانتفاضة

سيلفي منصور

ترجمة
نصير مروة

مؤسسة الدراسات الفلسطينية
بيروت

الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية
مشروع مبارك العبدالله المبارك الصباح
للدراسات العلمية الموسمية المتخصصة
الكويت

المحتويات

ثورة الحجارة...

إذا كان الأثر المادي لقذف الحجر لا يثير في الذهن صورة المعارك الملحمية، إلا ان رمزية التعبير مثقلة بالمعاني؛ إنها قوة التقابل بين الحجر والأسلحة المتطورة التي يملكها خصم (يعالج القنبلة النووية، ويطلق جرما صناعيا الى الفضاء ليزيد في تحكمه ورقابته على تنقلات أعدائه!)؛ إنها قوة الصورة مأخوذة بمعناها الحرفي: إذ ما هو الشيء الذي يمكننا تصوره ويكون أكثر التصاقا بالأرض من حجر؟ وهل نعرف كثيرا من الأشياء التي يفوق قصورها وجمودها قصور الحجر وجموده؟ فكي تثور الحجارة، بدورها، لا بد من ان يكون ثمة ارتكاب لظلم فاحش هو الذي جعل الطبيعة الغاضبة تهز الجبال.

ثورة الحجارة... بلى. فما بدا في البداية تمردا عفويا لـ «صبية» غاضبين، عاد فانتظم في انتفاضة عامة؛ في حين ان «الصبية» ازدادوا رتبة، وعلَوا مرتبة! بل أكثر من هذا. أفلا توشك هذه التقنية ان تحتل بعد الآن منزلتها في قاموس استراتيجية الانتفاضة الشعبية؟ وهكذا فان الصحافيين راحوا يقابلون، لدى الحديث عن الاضطرابات الأخيرة التي هزت المدن الجزائرية الرئيسية، التكتيكات التي يستخدمها شبان الجزائر أو وهران بتلك التي يستخدمها شبان الضفة الغربية وغزة.

من هم هؤلاء الأطفال والمراهقون الفلسطينيون الذين يقذفون الحجارة، ويتعرضون للجرح والقتل والسجن على ايدي الجنود الاسرائيليين؟ انهم يفرضون بتصميمهم وشجاعتهم وتهورهم ــ كلما أعطتهم وسائل الإعلام فرصة

الكلام ـ الاحترام على البالغين، وضمنهم أولئك الأشخاص المعادون للقضية الفلسطينية؛ ذلك بأن تمردهم يبدو عفويا وأصيلا. ومع توالي الشهور على «الانتفاضة» تأكدت هوية «قاذفي الحجارة» هذه. بيد انه يجب ألا تنسينا الجانب المُعَاش الذاتي، او المُعَاش «الخاص» (في مقابل الجانب المُعَاش العلني او «العام» الذي تنقله الصحافة الغربية) للطفل الفلسطيني او للمراهق الفلسطيني. وبطبيعة الحال، فان الرغبة في المضي الى ابعد من «قناع» قاذف الحجارة او الى ما وراءه، إنما هي شاغل يندرج ضمن شواغل عالمة نفس. غير ان في إمكاننا القول ان هذه الرغبة الملحة قد اندلعت بخاصة نتيجة مواجهة مع صورة ظهرت في مختلف الصحف واحتلت غلاف العدد ٢٧ من «مجلة الدراسات الفلسطينية» التي تصدر باللغة الفرنسية، وغلاف شريط مارسيل خليفة الأخير الذي يهديه الى الانتفاضة. الطفل يمسك بحجرين في كلتا يديه، لكنه سيبدأ بقذف أصغرهما. وهو يبدو انه يستشعر البرد بسترته التي باتت تضيق على سنِّه. فكيفما نظرنا الى الصورة خرجنا بالانطباع انه يوجه ناظريه المترعين بالحزن والوحدة والنقد إلينا. وجهه يبدو انه دبت الشيخوخة فيه، وجسمه الصغير ملتو في استدارته ليقذف الحجر الى ابعد ما يمكن. ويقينا انه غير خائف. لكن، أوتراه سيخاف بعد ذلك؟ أفيمكننا ان نتصوره يلعب لعبة الغميضاء من دون هموم ولا شواغل، ضاحكا ضحكة واسعة؟ أتراه يخشى العتمة والذئاب شأن كثير من الأطفال في عمره؟ كيف تراه وصل الى هذه الحال؟ ما هو مُعَاشُه اليومي؟ ما هي مشاريعه للمستقبل؟

ذهبت الى الضفة الغربية بين السابع من تموز/يوليو والعاشر من آب/أغسطس ١٩٨٨، لأحاول الاجابة عن هذه الأسئلة والتقاء الجانب «الصميمي» الذاتي للطفل والمراهق الفلسطيني. ولم أذهب الى هناك من دون مشروع دراسة طموح ـ فلـ «التكوين المهني» قسوراته ـ كان يشتمل على محادثات ومقابلات فردية مع أطفال ومراهقين، ومع عائلاتهم (مشروع كنت وضعت تصميمه بدقة)، مثلما اعددت الاختبارات الجماعية للمراهقين. ويجب ان أقول اني كنت اعرف «أبناء عمومة» هؤلاء الأطفال؛ عنيتُ أولئك الذين

ولدوا في عائلات فلسطينية لجأت الى لبنان سنة ١٩٤٨ وتعيش في مدن ومخيمات اللاجئين فيه. أعرفهم لأني التقيتهم في مخيم تل الزعتر قرب بيروت سنة ١٩٧٥، في سياق بحث يتعلق بهوية المراهق الفلسطيني،[١] ولأنه قدر لي ان أناقش معهم بعد ذلك في مدينة الدامور حيث لجأوا مع اسرهم بعد سقوط المخيم (صيف سنة ١٩٧٦) او في «بيت الصمود»، المؤسسة التي تولت في بيروت شؤون أيتام تل الزعتر. والى ذلك، فقد أُتيحت لي فرصة التقائهم في إبان الاستشارات النفسانية ــ المرضية في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت الذي كنت أعمل فيه. ثم اني اعرف «أطفال الحرب» في لبنان معرفة حسنة. ولا ريب ان الأعوام الأربعة التي أمضيتها في فرنسا جعلتني انسى بعض الشيء الصعوبات المنهجية التي يصادفها كل باحث على الأرض حين تكون الأرض «متحركة». فكم من مرة وضع بعضنا في إثر بعض في لبنان، مشاريع بحث تتعلق بتأثير الأحداث في الأطفال، لكنها مشاريع لم تتجاوز مرحلة الملاحظات التي ترد فترة بعد فترة.

وستتاح لنا الفرصة، خلال الفصول المتعاقبة، لأن نفكر في الصعوبات المنهجية التي صادفناها. فمشروع البحث الطموح قد انكفأ الى بعض الواقعية بحيث ان الصفحات التالية لا تدعي أنها تطبيق أنموذجي للصرامة الأكاديمية، بل تود ان تكون بمثابة شهادة (يدلي شخص بها عما شاهده وسمعه) لعالمة نفس (الأمر الذي يعني ضمنا عملية تنخب واختيار للمواد المرئية والمسموعة، تبعا لما يمكن ان تقدمه على صعيد فهم الواقع المُعَاش الذاتي) لم تكن تستطيع أن تمنع نفسها، وهي المرتبطة بممارسات العيادة النفسية، من التفكير طوال رحلة الدرس والاستقصاء في الثمن المدفوع على شكل جروح نفسانية، وفي التدابير التي لا بد من اتخاذها لتضميد الجروح المثخنة.

ثم ان المشروع كان غير مريح على أكثر من صعيد، ولأكثر من سبب.

---

(١) Sylvie Mansour, *L'Identité de l'adolescent palestinien dans un camp*, thèse de troisième cycle, Paris, université René-Descartes, Institut de psychologie, 1977.

على الصعيد الشخصي أولا، لأن الانغماس هنا لم يكن يعفي من تذكر ذكريات لا تزال حية نشيطة عن أعوام الحرب التي أمضيناها في لبنان. وعلى الصعيد المهني أيضا، ومن ثَمَّ، لأن المنهج كان منهجا غير معتاد. وهكذا فاننا لو أقمنا ضربا من الموازنة مع الخلق المسرحي الأدبي، لوجدنا ان «قاعدة الوحدات الثلاث» مفقودة وتعوزنا هنا: وحدة المكان ــ مكتب النفساني؛ ووحدة الموضوع ــ طفل واحد؛ ووحدة المنهج ــ المحادثة او المقابلة المتسلحة، الى هذا الحد او ذاك، بالروائز النفسانية (tests psychologiques). وغياب المعالم هذه لا يجد ما يراجحه ويعوض منه عبر إقامة هيكلية بحث أكاديمية محكم. وعالم النفس يداول المناهج السريرية ومناهج علم النفس الاجتماعي (وخصوصا عندما يتعلق الأمر برصد او بمراقبة تشاركية)، وهو يغازل طرائق الصحافيين، وخصوصا حين يحمل في يده آلة تصويرا بل لكل مهنة صاحبها: فالنفساني صحافي ضحل! فهو يشعر إزاء المأساة بنفسه وكأنه يتصرف كالمصابين بمرض التلذذ باللصلصة وشذوذ النظر، فتعتريه الرغبة في ان ينسحب على أطراف قدميه مدركا انه غير مجد، او على الأقل ان لا جدوى له في الميدان المحدد الذي يشعر فيه بكفاءته؛ عنينا ميدان التدخل النفساني! لكن من ذا الذي يتكلم إذا ما انسحب هو؟ ومن يشهد؟ انما يقول: ليكن ما يكون! سيتكلم ويخلط بين الأنواع، ويؤلف بين الميادين؛ فمن وصف البيئة الطبيعية او الإطار الفيزيقي الى تحليل المضمون الاحصائي للوثائق المكتوبة، ومن المحادثة او المقابلة السريرية التقليدية.. تحت شجرة توت.. الى المحادثة غير الشكلية مع الأمهات والمعلمين والعمال الاجتماعيين. الهدف، إذاً، هو فهم هؤلاء الشبان بالوسائل المتيسرة، وأن نخرج مخرج الكلام، لهم مجتمعين، مراكز اهتمامهم ومحاور مخاوفهم وآمالهم ومشاعرهم.

وقبل ان نقارب طفل الانتفاضة او مراهقها وجها لوجه، فانه ينبغي لنا ولا ريب ان نحاول فهم ما افضى به إليها، وكيف اودت الأمور به الى ان يلعب هذا الدور، وأن نعيده ونرده من أجل هذا الى محور سياسي ــ تاريخي ــ اجتماعي: فقاذفو الحجارة ليسوا، في الواقع، سوى الحلقة الحالية في سلسلة

طويلة سنحاول ان نترسمها في فصل أول. ثم ننتقل بعد هذا الى ملاقاة مختلف مجموعات الأعمار، على التوالي: من تتدنى أعمارهم عن ثمانية أعوام، فمن تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثانية عشرة، فالمراهقون، مبتدئين أبدا بالرصد والملاحظة المباشرة في حي من أحياء مدينة البيرة، لنوسع بعد ذلك مصادر المعلومات.

* * *

وأود هنا ان أشكر الأصدقاء الفلسطينيين كافة، الذين ما كان يمكن القيام بهذا العمل من دون معونتهم: ابتداء بصالح واصلاح من أجل دعمهما اللوجستي وتشجيعهما؛ ثم مسؤولي وكالة الأمم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا)، الذي شاؤوا ان يولوني ثقتهم ويتيحوا لي دخول المدارس؛ ومدير مدرسة رام الله وأساتذتها الذين بذلوا أوقاتهم لتمرير الأسئلة الى تلاميذهم؛ والأستاذ ألبير والأساتذة الآخرين كافة الذين التقيتهم في القدس وبيت لحم وغزة، وساعدوني في فهم واقع الانتفاضة الفلسطيني. كما أشكر أخيرا جميع الشبان الذين شاركوا في المقابلات، او أجابوا عن الأسئلة المدرجة في الاستمارات. وأنا مدينة بالكثير للأصدقاء العرب الباريسيين الذين ساعدوني في ترجمة وثائقي، وشجعوني على المضي في مشروعي.

خلفيَّة تاريخيَّة

كانت فلسطين، في القرن التاسع عشر، تشكل جزءا من جميع سوري مقسم إداريا لا سياسيا (باستثناء جبل لبنان الذي كان يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي).[1] وإنما بدأ شعور معاداة الأتراك يتخذ شكلا سياسيا في نهاية القرن التاسع عشر، عندما بدأ الوعي القومي العربي او الوجدان القومي العربي يحل محل فكرة الانتماء الى دين واحد هو الدين الاسلامي. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، اعتقد عرب الولايات التركية الآسيوية ان ثمة إمكانا لتحقيق آمالهم فورا. غير انه تلا تفكيك وابتضاع الامبراطورية العثمانية وعقبه على الفور، تقاسم للنفوذ بين فرنسا وإنكلترا. فاحتلت فرنسا لبنان وسوريا بينما احتل الانكليز العراق وفلسطين وشرق

---

(١) رجعنا، فيما عنى التاريخ، الى العديد من المؤلفات، بينه:

Neville Mandel, *Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine, 1882-1914* (London: St Antony's Papers, No. 17, Oxford University Press, 1965); Maxime Rodinson, *Israël et le refus arabe — 75 ans d'histoire*, Paris, Seuil, 1969; Nathan Weinstock, *le Sionisme contre Israël*, Paris, Maspero, 1969; «Le conflit israélo-arabe», *les Temps modernes*, dossier, 22e année, 1967, n° 253 bis; Elias Sanbar, *Palestine 1948, l'expulsion*, Paris, Les Livres de la *Revue d'Études Palestlniennes*, 1984,

حيث يمكن للقارىء أن يجد بيبليوغرافيا مهمة في الصفحات ٢١٩ ــ ٢٣٤؛

Tom Segev, *1949: The First Israelis* (New York: Free Press, 1985); Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949* (Cambridge: Cambridge University Press, 1987); Simha Flapan, *The Birth of Israel* (New York: Pantheon, 1987).

الأردن، ضاربين بالمشاعر المحلية عرض الحائط. وقد بدأت أول تمردات وانتفاضات مسلحة فلسطينية منذ بداية الانتداب البريطاني، وهي تمردات كانت تتنامى وتزداد مع تنامي وعي الفلسطينيين بالوعود المتناقضة التي كان البريطانيون يزجونها للقوميين العرب ولممثلي الحركة الصهيونية العالمية. فالواقع هو ان فلسطين شهدت، منذ نهاية القرن التاسع عشر، وصول أول مستوطنين يهود. ويعد المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في «بال» سنة ١٨٩٧، بدفع وتحفيز من تيودور هيرتسل،وضعت الحركة الصهيونية لنفسها هدفا هو إنشاء وطن يهودي في فلسطين. وقد حظي هذا البرنامج بدعم بريطاني رسمي («وعد بلفور») سنة ١٩١٧؛ اذ وعدت بريطانيا بالمساعدة في إنشاء «وطن قومي يهودي» في فلسطين، «شريطة ألا يلحق ذلك ضررا بسكان البلد.» ويفسر هذا الشرط المستحيل التحقيق ردات فعل سكان البلد العنيفة إزاء موجات المهاجرين: نيسان/إبريل ١٩٢٠، وأيار/مايو ١٩٢١، وآب/أغسطس ١٩٢٩، ثم وخصوصا ثورة سنة ١٩٣٦ التي تواصلت ثلاثة أعوام وقمعها البريطانيون بشراسة (توقيف وسجن ونفي شخصيات فلسطينية عديدة، عقوبات جماعية في المدن والقرى، إعدامات شنقا، إلخ...[٢]).

غير ان رفض الفلسطينيين لم يتمكن من منع تعزيز المؤسسة الصهيونية محليا ودوليا، وخصوصا بعد المجازر التي ارتكبتها ألمانيا النازية ضد ملايين اليهود الأوروبيين. وكائنا ما كانت التبريرات التي قدمها الصهيونيون لقضيتهم، فان التعارض بين الفلسطينيين من جهة، وبين القوة الانتدابية والمستوطنين من جهة اخرى، بدا كاملا؛ كان تعارضا قوميا، واقتصاديا، واجتماعيا، وثقافيا. اذ في حين كان يغلب على الأهالي الفلسطينيين، الريفيين في أغلبيتهم العظمى، التعلق بالأرض وبالعائلة (بمعناها الواسع، «الحمولة») وبالقيم التقليدية، فان الفلاح وجد نفسه مواجها بانزراع ثقافة اخرى،

---

(٢) انظر:

Sami Hadawi, *Bitter Harvest* (New York: The New World Press, 1967).

وباغتصاب أراضيه، وبتغير بيئته ووسطه الاجتماعيين. وإذا كان قد سبق ان شاهد جحافل الفاتحين والغزاة تتقاطر أمام عينيه، إلا انه حدس خطر ان يجد نفسه محكوما بسلطة سياسية ليست بسريعة الزوال هذه المرة، هي تلك التي يشكلها الاستيطان. ثم ان دفق المهاجرين الجدد وقناعتهم بأن لهم حقا في البلد، لم يكونا إلا ليعززا شعوره بأن بيته مهدد.

اصبح النزاع حرجا في فترة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨. كانت الموازين السياسية العسكرية تميل بقوة الى جانب المؤسسة الصهيونية، اي دولة اسرائيل الوليدة. وهكذا فان ما كان تخوفا اصبح واقعا، وغادر ٧٠٠,٠٠٠ عربي قراهم خلال المعارك. كيف حدث ذلك؟ يبدو ان ثمة سببين رئيسيين يفسران هذا الرحيل الكثيف: (٣)

١ ـ المواجهة المباشرة مع الارهاب الصهيوني (هجمات ضد المدنيين، وطرد القرويين، وقصف القرى، ونسف المنازل)؛

٢ ـ المواجهة غير المباشرة مع الارهاب الصهيوني (الضغوط النفسية بفضل الشائعات المروجة عمدا عن أعمال إرهابية صحيحة او مختلقة).

ولم تكن المواجهة المباشرة مع الارهاب الصهيوني من نصيب أهالي دير ياسين وحدهم، بل كانت واقعة عامة ربما لم يكن لها دوي دير ياسين، لكنها كانت حاضرة وفعّالة. (٤) وإزاء اقتراب الخطر الصهيوني تنظمت

---

(٣) أنظر:

Sanbar, *op.cit.*; Walid Khalidi, «Why did the Palestiniens leave,» *Middle East Forum*, xxxiv, July 1959, p. 21 et seq.

(٤) في التاسع من نيسان/إبريل ١٩٤٨، وقعت في قرية دير ياسين مذبحة ذهب ضحيتها ٢٥٠ من الرجال والنساء والأطفال. أنظر الكتاب التالي لرئيس وفد لجنة الصليب الأحمر الدولية في فلسطين خلال ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، الذي زار أماكن المجزرة بعيد وقوعها وقدم شهادة في شأنها:

Jacques de Renyer, *A Jérusalem un drapeau flottait sur la ligne de feu*, Neuchâtel, Éditions de la Baconnière, 1950, pp. 69-76.

المقاومة الشعبية في القرى، وغالبا بطريقة عتيقة ولّى زمانها بسبب نقص السلاح وقلة الرجال المدربين على استخدامه. وفي لحظة المواجهة مع الصهاينة، كان غالبا ما يجري إجلاء الشيوخ والنساء والأطفال الى الحقول حول القرى، بينما يظل الرجال المسلحون داخلها. وكان مما يزيد تعبئة الفلسطينيين قوة ان أغلبية هذه المعارك جرت في نيسان/إبريل ــ أيار/مايو ١٩٤٨، اي في الفترة التي كان الزرع فيها يانعا ولمّا يُحصد، وهو الحين الذي تكون فيه صلة الفلاح بأرضه على أقوى ما تكون.

وإزاء التفوق الصهيوني، وأمام أعمال الغزاة الارهابية، بدأ الرعب يتصاعد على الرغم من الوعود العربية بالتدخل بعد الخامس عشر من أيار/مايو، وهو الموعد الذي جرى إعلانه لانهاء الانتداب. فغادر القرويون قراهم وهم لا يلوون على شيء، معتقدين انهم يتركونها لزمن قصير. وهكذا، فانهم خلفوا أرزاقهم وحاجاتهم وراءهم مكرهين على الفرار سيرا على الأقدام، وفي أحسن الأحوال مع دابة، سالكين الطرق الفرعية لأن الطرق المعبدة كانت مزروعة بالدوريات الصهيونية. كانت الهجرة بادىء ذي بدء داخل فلسطين (اي هجرة من قرية الى اخرى). ثم انه لم يكن للمهجرين، في معظم الأحيان، حرية في اختيار الطريق التي يسلكون؛ ذلك بأن القوات الصهيونية المحاصرة للقرية لم تكن تترك إلا معبرا واحدا. وهكذا فان أهل كل قرية كانوا يرحلون معا، وفي الاتجاه ذاته نحو لبنان او سوريا او شرق فلسطين، او نحو الجانب الآخر من الحدود مع شرق الأردن. والروايات التي كان يسردها هؤلاء القرويون الهاربون كانت تساهم في خلق صورة مخيفة للصهيوني في القرى المجاورة التي ظلت بمنأى عن الاضطرابات. وكان هناك، فضلا عن هذه الروايات، الشائعات الكاذبة المروجة حول الأوبئة المخيفة أو أعمال العنف التي كان يُزْعَم أنها على وشك الاقتراف.

وهكذا، فان استراتيجية مرسومة بدقة حققت مع نهاية الحرب الفعالية المنشودة: فحدود مشروع الأمم المتحدة للتقسيم تطايرت، وأمسك الصهاينة بالقسم الأكبر من فلسطين؛ ولدت دولة اسرائيل، وطرد العديد من

الفلسطينيين من أراضيهم؛ وسيعيش الفلسطينيون تجارب مختلفة بحسب ما إذا كانت أصولهم تعود الى المناطق الفلسطينية الخاضعة للاحتلال الاسرائيلي، او الى شرق فلسطين، او الى غزة.

١ ــ ظل ١٥٦,٠٠٠ فلسطيني تقريبا داخل دولة اسرائيل المنشأة حديثا. هؤلاء لم يعرفوا منفى حقيقيا، إلا انهم يجدون انفسهم في ديارهم مواطنين من الدرجة الثانية، خاضعين طوال أعوام كثيرة لحكم عسكري.(٥) وقد ظلوا حتى سنة ١٩٦٧ معزولين بالكامل عن باقي الشعب الفلسطيني. ويتفق المراقبون كافة، حاليا، على الحديث عن تنامي شعورهم بفلسطينيتهم وتصاعده.

٢ ــ وجدت أغلبية الفلسطينيين العظمى نفسها مجبرة على اللجوء الى الدول العربية المجاورة (وأساسا سوريا ولبنان)، والى ما تبقى من فلسطين (اي ما أُطلق عليه منذ سنة ١٩٤٩ اسم الضفة الغربية وقطاع غزة). وجرى إيواء اللاجئين باديء الأمر في أماكن العبادة وفي المدارس والمباني البلدية. ثم بدأ بعد ذلك، وبمساعدة الحكومات العربية والهيئات الانسانية، ظهور أول مخيمات للاجئين: مخيمات صفيحية مكتظة وغير صحية. وفي الثامن من كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨، قررت الأمم المتحدة إنشاء وكالة الأمم المتحدة لاغاثة وتشغيل الفلسطينيين في الشرق الأدنى (أونروا)، وهي هيئة أُوكل إليها مساعدة «اللاجئين الفلسطينيين». وهكذا، فانه سيحل محل مخيمات الصفيح، بالتدريج، مخيمات أكواخ مبنية بمواد متنافرة (إسمنت، وحديد، وطين،

(٥) أنظر:

Sabri Geries, *les Arabes en Israël,* Paris, Maspero, 1969; Alexander Schölch, ed., *Palestinians over the Green Line* (London: Ithaca Press, 1983); Camille Mansour, éd., *les Palestiniens de l'intérieur,* Paris, Les Livres de la *Revue d'Études Palestiniennes,* 1989,

وبصورة خاصة الفصل الذي كتبه عزيز حيدر في هذا الكتاب الأخير، وهو بعنوان:
«L'expression politique des palestiniens en Israël».

إلخ). لكن هذا التطور لم يتم من دون معارضة الفلسطينيين الذين كانوا يخشون ان يستحيل الحل الموقت الى حل نهائي، مع خطر الاندماج في البلاد العربية المضيفة.

ثم ان المسؤولين عن إقامة المخيمات كانوا يقيمونها، على وجه العموم، بعيدا عن المدينة المختارة كمكان لإنهاض المخيم، آخذين بعين الاعتبار ان البناء في المدينة سيمتد مع مرور الأعوام ليصل الى المخيم. والوحدات السكنية الملتصق بعضها ببعض تقريبا، مصفوفة على كلا جانبي ممرات حفرت في وسطها قنوات لتصريف المياه الآسنة. وحدها الطريق الرئيسية التي تصل المخيم بـ «المراكز» كانت معبدة.

في إطار البؤس هذا، سيعمد الفلسطيني الى مقايضة وعيه لقيمة ما فقده، بوعي قوي ووجدان ثوري. وهو يبذل جهودا يائسة لاعادة خلق ما فقده، وذلك بأن يلعب مع نفسه ملهاة «كما في السابق». وهكذا استبقى التنظيم الاجتماعي المؤسس على الأسرة، والذي كان في أساس الحياة في القرية: «فشبكة (الحمولة) كانت تستخدم في المخيمات لنقل المعلومات وكأساس لتوزيع خدمات الأونروا.»(٦) وأكثر من هذا؛ فكثيرون من مسؤولي الأونروا لاحظوا واقعة اجتماعية موحية: اذ ان سكان المخيمات يتجمعون وفق المدن او القرى الفلسطينية التي جاؤوا منها، ويطلقون اعتباريا على كل حي اسم القرية او المدينة الأصلية. والعلائق الاجتماعية والزيجات تتم فيها بين الفلسطينيين بخاصة، أما الاتصالات بالعرب غير الفلسطينيين فنادرة. وستكون نتيجة هذا «التكيُّس» او التقوقع من أجل البقاء، توعّيا حادا للهوية الفلسطينية، يزيد في حدته الفرز او العزل الجغرافي للمخيمات التي تقع في الغالب عند أطراف المدن الكبرى، على طريقة الضواحي الصفيحية، وكذلك رفض الدول المضيفة (واقعا ان لم نقل قانونيا) إيلاء الفلسطينيين

---

(٦) Don Peretz, *A Palestine Entity?* (Washington: Middle East Institute, 1970), p. 25.

الحقوق ذاتها التي يتمتـع أبناؤها بها.(٧) و «تتجلى التوترات التي ولـدتها هذه الحالة الانتقالية، وأنشأتها الآمال المتواصلة أبدا والمحبطة دائماً، وفقا لمسؤولين طبيين في الأونروا، في التواتر المرتفـع للأمراض الجسدية ــ النفسانية السائدة في المخيمات. ثم ان الفجوة المتعاظمة التي تفصل بين حقائق حيـاة اللاجىء اليومية وصيغته الكلامية لرؤيته، اي إخراجه مخرج الكلام لرؤيته للعودة الى الدار وللأمن، والتي بلغت من المثالية اقصى مبلـغ تستطيـع الوصول اليه، قد نمّت بين الفلسطينيين ذهنية شتات (دياسبورا).»(٨)

وإذ ينشحذ ويشتد الوعي الوطني بقدر ما ينشحذ الوعي بالاغتصاب، فان اللاجىء يصبـح مناضلا: وقبل سنة ١٩٦٧، كان الفلسطينيون يناضلون أساسا في صفوف الأحزاب (التي تدعو الى الوحدة العربية) في البلاد التي لجأوا إليها؛ لم يكن ثمة «زعماء» فلسطينيون بالمعنى الدقيق للكلمة. فالجماهـير الفلسطينية كانت مستقطبة من قبل الزعماء العرب. ومن الصحيـح، في نهاية التحليل، القول انه لم يكن ثمة حركة وطنية فلسطينية حقيقية بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧، لكن كان ثمة وعي شعبـي عربـي فلسطيني بأن هناك دورا يبحث عمن يقـوم به. وكثيـرون من الفلسطينيـين اعتقـدوا ان الـرئيس عبد الناصر يستطيـع لعب هذا الدور. وكان بينهم تيار صاعد يشدد على الوحدة العربية كطريق لتحرير فلسطين. غير ان الجمهورية العربية المتحدة قـدمت، بطبيعـة الحال، مصـالحها الـوطنية هي الأخـرى على مصـالـح الفلسطينيين، الأمر الذي افضى في النهاية الى الاحباط إزاء اللاعب وازاء دوره.(٩)

---

(٧) فيما يتعلق بالطريقة التي «تعامل» الفلسطينيون بها، أو «أجروا تسويتهم» بها، مـع الماضي في إطار مخيمات اللاجئين، أنظر:

Rosemary Sayegh, *Palestinians: From Peasants to Revolutionaries* (London: Zed Press, 1979).

(٨) Peretz, *op.cit.*, pp. 24-25.

(٩) *Ibid.*, p. 41.

وسيكتمل تبين الرشد من الغي فيما عنى الزعماء العرب بعد هزيمة حزيران/يونيو ١٩٦٧، وسيتاح لنخبة فلسطينية كانت ناشطة قبيل ذاك، ان تقدم استراتيجيتها هي بنجاح. اذ سرعان ما ستصبح مخيمات اللاجئين متقبلة للمنظمات الفلسطينية التي ستعارض شعار «الوحدة العربية كطريق لتحرير فلسطين» بشعار «تحرير فلسطين هو طريق الوحدة». وستصبح مخيمات اللاجئين نقاط انطلاق لعمليات ضد اسرائيل.(١٠) ثم سيجري إنشاء قواعد عسكرية قرب خطوط وقف إطلاق النار (الأردن، ولبنان، وسوريا)، كما أن مخيمات اللاجئين نفسها سوف تتأطر بالميليشيات المسلحة لمواجهة الردود الانتقامية الاسرائيلية او لمواجهة سلطات الدول المضيفة. بل ان المنظمات ستتولى، الى حد بعيد، الخدمات العمومية. لقد اصبح اللاجىء ثوريا يكافح من أجل العودة الى فلسطين.

لكن أحداث الأردن خلال ١٩٧٠ ــ ١٩٧١، ستوقف هذا التحول. فالقواعد المقامة على طول ضفة الأردن ستفكك، بينما سينزع سلاح الميليشيات. وسيكون لذلك اثره لجهة إضعاف الكفاح الفلسطيني في باقي البلاد العربية، وكذلك بالنسبة الى النشاط العسكري. غير ان الفلسطينيين سيعاودون النهوض فيما بين سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٧٥ من هذه الكارثة الجديدة، ولا سيما بعد حرب سنة ١٩٧٣. لكن لبنان هو الذي سوف يصير مركز نشاطات المقاومة. ثم ان الفلسطينيين سيجدون أنفسهم، في الحين ذاته، داخل حلبة الحرب الأهلية اللبنانية (حصار مخيمي جسر الباشا وتل الزعتر على يد الميليشيات الكتائبية التي ستمحوهما عن الخريطة)، وستبلغ المرحلة اللبنانية من محنة الفلسطينيين ذروتها مع الغزو الاسرائيلي للبنان ورحيل منظمة التحرير الفلسطينية عن بيروت، ومجازر صبرا وشاتيلا، وأخيرا مع سلسلة المعارك القاتلة مع ميليشيا حركة أمل والتي تركت الأسر الفلسطينية جريحة مهيضة الجناح.

---

(١٠) Hisham Sharabi, *Palestine Guerrillas, their Credibility and Effectivness* (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1970).

٣ ــ ثمة عدد من الفلسطينيين المتحدرين من عائلات تنتمي الى البورجوازية، الصغيرة او الكبيرة، تبعثر في مختلف البلاد العربية (بما في ذلك دول الخليـج)، وكذلك في أوروبا والولايات المتحدة، من دون ان يفضي ذلك الى تلاشي مشاعره الوطنية.(١١)

٤ ــ لكن، لنستأنف حكاية تاريـخ الفلسطينيين الذين واصلوا العيش في شرق فلسطين او «الضفة الغربية» (التي تمثل قرابة ٢٠ ٪ تقريبا من فلسطين)، وفي منطقة غزة اعتبارا من سنة ١٩٤٨، ذلك بأن من سوف نلتقيهم هم أبناء هؤلاء او أحفادهم. لقد رأينا ان موجة من اللاجئين لحقت سنة ١٩٤٨ بأهالي هذه المنطقة، وأن عددا من أفراد هذه الموجة استقر في المدن والقرى، في حين ان أكثرهم فاقة تجمعوا في المخيمات التي جرى إنشاؤها هنا، مثلما كان الشأن في باقي الدول العربية، وكانت لها الخصائص ذاتها.(١٢) وتتولى وكالة الأمم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا) شؤون ٢٨ مخيم لاجئين، موزعة على مختلف المناطق كما يلي:(١٣)

(١١) Sanbar, *op. cit.*, pp. 210-211.

(١٢) أنظر أعلاه، ص ١٥ ــ ١٧.

(١٣) Kamal Abdulfattah, «The Geographical Distribution of the Palestinians on both Sides of the 1949 Armistice Line,» in Schölch, *op. cit.*, p. 103; *Revue d'études palestiniennes*, n° 27, printemps 1988, pp. 59-60.

مخيمات الأراضي المحتلة

المنطقة	العدد
الضفة الغربية:	
جنين	١
طولكرم	٢
نابلس	٤
رام الله	٣
أريحا ـ القدس ـ بيت لحم	٨
الخليل	٢
قطاع غزة:	-
غزة	٦
خان يونس	١
رفح	١

والوكالة لا تدير المخيمات، لكنها تقدم لها عددا من الخدمات (معونة غذائية، ومساعدة اجتماعية، وصحة، وتعليم، وإعداد مهني وتربوي...)؛ واللاجئون الذين يعيشون خارج المخيمات يستفيدون هم أيضا من الخدمات المقدمة في منشآت مماثلة (مدارس، ومستوصفات...).

وفي حين ان قطاع غزة سيصبح تحت إشراف مصري، فان الملك عبد الله، ملك الأردن، سيضم الضفة الغربية الى مملكته في ٣٠ نيسان/إبريل ١٩٤٩ . وستقبل جامعة الدول العربية الضم قبول الأمر الواقع، لكنها لا تعترف للعاهل الأردني إلا بحق موقت في إدارة الضفة الغربية للأردن، اي ما دام لم يجر إنهاض حل شامل. وانطلاقا من سنة ١٩٥٢ يبدأ اعتبار سكان الضفة الغربية كافة، وضمنهم أولئك الذين لجأوا إليها، اردنيين. وعلى هذا، فان أصول «قاذف الحجارة» الصغير باتوا يملكون جواز سفر أردنيا وينتمون الى واحدة من الفئات الثلاث المنوه عنها أعلاه وهي: لاجئون في مخيم، لاجئون في

مدينة او في قرية، مقيمون من أصل محلي. غير ان الواقـع المُعاش لهذه الفئات الثلاث، مجتمعة، سرعان ما أصبـح واقـع قهر سياسي واقتصادي: وخصوصا اعتبارا من سنة ١٩٥٦، حين سيجد آلاف المثقفين والوطنيين الفلسطينيين انفسهم في السجن. أما التظاهرات فسيقمعها الجيش بشدة. وأما السياسة الاقتصادية المتبعة فواضحة: التدابير المتخذة كافة تهدف الى جعل الضفة الغربية متزايدة الارتهان لشرق الأردن حيث تتركز مشاريع التنمية كلها.

وحين وقـع الغزو الاسرائيلي سنة ١٩٦٧، ادى الى خروج الجيش الأردني من الضفة الغربية. وبعد وقف إطلاق النار دمرت قرى عـديدة (مثلا: قرى يالو، وبيت نوبا، وعمواس...) في حين جاء سكانها يضيفون أعدادهم الى أعداد اللاجئين؛ وهكذا، فان ٢٥٠ ألف فلسطيني سلكوا طريق الرحيل وتركوا الضفة الغربية وقطاع غزة متجهين نحو شرق الأردن. كان ذلك بالنسبة الى البعض منهم ثاني اقتلاع من الجذور؛ ثم انه جرى إنشاء ستة مخيمات صفيحية جديدة في الأردن، وأربعة في سوريا (لاستقبال اللاجئين المهجرين من محافظة القنيطرة).

وفي الضفة الغربية، كما في قطاع غزة، بدأ الفلسطينيون مرحلة جديدة من تاريخهم ما زالت مستمرة الى الآن: وهم يجدون انفسهم تحت حكم عسكري اسرائيلي، في حين ان الاسرائيليين ضموا مدينة القدس في ٢٨ حزيران/يونيو ١٩٦٧. وسرعان ما بدأت السياسة الاسرائيلية التي تقوم على إنشاء امر واقـع بعد آخر، عبر إقامة المستعمرات، تستثير موجـات من الاحتجاج تتنظم انطلاقا من المدن الكبرى (نـابلس، والبيرة، ورام الله، وطولكرم، والقدس الشرقية). ومنذ سنة ١٩٦٨، بدأت سلسلة العقوبات الجماعية وحملات النفي تشكل الرد على التعبير العفوي للمقاومة الشعبية. أما الزعماء التقليديون الذين أرسوا سلطتهم في الأعوام السابقة على النظام الأردني، وعلى قوتهم الاقتصادية، فانه بدأ يكتسحهم رأي عام بات يتعبأ حول ثلاث موضوعات: المعارضة العنيدة للاحتلال الاسرائيلي، وتـأييد منـظمة التحرير الفلسطينية بصفتها ممثلته الوحيدة، ورفض العودة الى الحضن الأردني.

والاحتفالات بذكرى الأيام التاريخية السلبية (وعد بلفور، وقرار الأمم المتحدة بالتقسيم. . .)، والتدابير المادية التي يتخذها الحكم العسكري الاسرائيلي (التوقيفات، ونسف البيوت. . .) هي مناسبات للاحتجاجات والتظاهرات. واعتبارا من سنة ١٩٦٨، اصبح الوعي السياسي أكثر تمفصلا تحت قيادة زعامة جديدة، وبدأت الشعارات والأعلام الفلسطينية تنبعث شيئا فشيئا من جميع نواحي الضفة الغربية وقطاع غزة.

ولن ندخل في تفاصيل الأعوام العشرين من الاحتلال الاسرائيلي، التي افضت بهذه المنطقة الى الانتفاضة الحالية.(١٤) يكفينا ان نقول ان الحكومة الاسرائيلية صادرت ٥٠ ٪ من أراضي الضفة الغربية، و ٣٠ ٪ من أراضي قطاع غزة، وانه جرى إسكان خمسين ألف مستوطن (لا يشمل عددهم عدد مستوطني القدس الشرقية) في مستعمرات(١٥)، وان الفلسطينيين لا ينون يعيشون في الإذلال والإحباط (مصادرة أراضيهم، والتوقيفات الاعتباطية، والتعذيب في السجون، والعقوبات الجماعية، وتكبيل الحريات المدنية والسياسية والصحافية، والنفي، والإبعاد، والقيود على التنقل. . .).

ان الطفل الفلسطيني يحمل اليوم على كاهليه الإذلالات والإحباطات التي كانت الخبز اليومي لأجداده وأجداد أجداده. فقد كبر وما زال يكبر على وتيرة المآسي التي تهز اسرته في فلسطين وجيرانه، وأقاربه البعيدين في لبنان او في الأردن. انه محكوم عليه بأن يكون طرفا في الأحداث، لا بسبب «قصته العائلية» فقط وإنما لمجرد انه فلسطيني وأن مجرد وجوده يشكل تكذيبا قاطعا لكل من تمنوا ان تكون فلسطين «أرضا بلا شعب».

---

(١٤) Gail Pressberg, «The Uprising, Causes and Consequences,» *Journal of Palestine Studies*, Vol. XVII, No. 67, Spring 1988, pp. 38-50.

(١٥) Georges Kossaifi, «L'enjeu démographique en Palestine»; and Khaled Ayed, «Les colonies de peuplement israéliennes dans les territoires occupés», in Camille Mansour, *op. cit.*

لقَاءَات مَع الأطفَال

الأحد، العاشر من تموز/يوليو... القدس الشرقية، القدس الغربية... اين تقع «الحدود»؟ في بيروت يقسم «خط التّماس» المدينة بصورة واضحة جلية، بحيث ان من المستحيل العبور من منطقة الى اخرى من دون ملاحظة ذلك وتبيّنه. أما الأحياء الشعبية في القدس الغربية، فتبدو حين تعبرها في سيارة أجرة بألوان وصخب سوق شرقية. فلمن تنتمي هذه الوجوه؟ الى اليهود أم الى العرب؟ واللعبة المتواضعة التي قوامها التنبؤ بانتماء من نصادفه على الرصيف، او تلك التي تجدها جالسة الى جانبك في الحافلة، إنما تتطلب حِسَّ ملاحظة بالغ الدقة، وخبرة كبيرة بالبلد... فحتى الفلسطينيون تخونهم الملاحظة بعض المرات.! اية تمثلات ذهنية يحملها الأطفال اليهود او العرب، كلٌّ عن الآخرين؟

الإثنين، الحادي عشر من تموز/يوليو... اسرائيل، الأراضي المحتلة... ليس هناك «حدود» ملموسة بعد، ولا حواجز ثابتة على الطريق التي تصعد من القدس الى رام الله. ليس اليوم على الأقل، لكن ستكون موجودة في بعض الأيام. إذ كثيرا ما يكون هناك حدود وحواجز يوم الجمعة لتنخب السيارات النازلة الى القدس، على أمل ردع أولئك الذين قد تراودهم فكرة التظاهر بعد صلاة الجمعة.

وإن كان المرء لا يستطيع ان يرصد أو يستدل على فئات عبر الوجوه، فانه يستطيع ان يعرف فئات السيارات على الطريق. وأول تفسير يقدم للسائح الذي يكتشف البلد، يتعلق بلوحات تسجيل السيارات: فهي لوحات صفر بالنسبة الى اليهود والعرب المقيمين في القدس الشرقية، وزرق

وبيض في حالة سكان الضفة الغربية وغزة. بل ان اللوحة تشمل، فيما عنى هؤلاء الأخيرين، الحرف الأول من اسم المدينة (بالعبرية) التي يقيم مالك السيارة فيها. إنها طريقة أريبة في التأشير للجندي المرابط عند الحاجز الى السيارات «المشبوهة» التي يجب مراقبتها، وللشرطي الى السيارات التي يجب ان تنظم في حقها مخالفة لمجرد أنها تسير. ويعيش السائقون الفلسطينيون تحت هاجس الشرطيين هؤلاء (بين جملة هواجس اخرى) الذين يجدون أبدا ما يكفي من الأسباب لتوقيع غرامة في حق عربي مار. لكن هذا السلاح عاد فأصبح ذا حدين: فاللوحة الصفراء تؤشر للطفل وللمراهق الفلسطيني بالمرمى الذي ينبغي له ان يصوب حجره اليه، سواء أقذفه باليد ام بالمقلاع. ولهذا، فان فلسطينيي القدس الشرقية يجدون انفسهم على طرقات الضفة الغربية في وضع سيىء... فهكذا كان وضع الصديق الذي أقلني في هذا اليوم الى رام الله: طمأنني الى ان سيارته معروفة على هذه الطريق التي لا يني يسلكها عدة مرات في اليوم منذ أعوام وتقع بين سكناه ومقر عمله، بحيث انه لا يخاطر، في الانتقال، بشيء. ومع هذا، فانه اصبح أكثر يقظة وتنبها حين اصبحت السيارة بمحاذاة مجموعات التلاميذ والتلميذات لحظة خروجهم من المدرسة... وقُدِّر لي بعيد ذلك بأيام ان اختبر يقظته حين بدأت طفلة ناهزت العاشرة تستعد لاطلاق قذيفتها المحتومة لولا ان حال هو دون ذلك بصيحة مدوية أطلقها في اللحظة الأخيرة من نافذة السيارة المفتوحة: «نحن عرب». وثمة طريقة اخرى لطلب السلامة بالنسبة الى أولئك الذين يضطرون الى الانتقال على طريق في سيارة غير معروفة فيها، هي وضع «الحطّة» او «الكفية» على لوح السيارة. وعلى هذا، فانه لا بد ان يضع السائق «الكفية» في مكان بارز مرة، او ان يخفيها تحت مقعد السيارة مرة اخرى، بحسب ما إذا كانت طريقه تقاربه من فريق شبان يتحدثون فيما بينهم على طرف الطريق، او توصله الى حاجز شرطة او دورية من دوريات الجيش. وبطبيعة الحال، فان هناك أبدا خطر الاصابة بقذيفة ليست موجهة إلينا، كما حدث في ذلك اليوم الذي ذهبت فيه الى أريحا بسيارة من سيارات الأونروا: فقد كان

الحجر موجها الى عربة تغص بالمستوطنين الذين كانوا يسيرون في الاتجاه المعاكس، لكنه استقر على ماسحة زجاج سيارتنا. والواقع هو انني تعلّمت في إبان إقامتي ان هذه العلامات الفارقة لا تفيد في أغلب الأحيان لأن المستوطنين، شأنهم في ذلك شأن رجال وكالات الاستخبارات الاسرائيلية، يستخدمون ــ من باب التكتم ــ سيارات مزودة بلوحات زرق او انهم يشهرون «الكفية».

ويجب ان نشير، فيما عنى فئات السيارات الأخرى التي نستطيع تمييزها، الى تاكسي الأجرة الذي يشبه «السرفيس» اللبناني، اي تلك السيارات المهيأة لنقل سبعة ركاب على خط معين، يحدد «محطات التوقف» فيه الركاب انفسهم حين يشيرون الى السائق ليتوقف. يبقى أخيرا السيارات العسكرية والسيارات الخاصة والعربات الصغيرة الملأى بالمستوطنين. وللسيارات العسكرية «الجيب» منظر مهيب يزيد في رهبته أنها مدرعة بشاشة مشبكة تحمي الجالسين داخلها من قذائف الحجارة. وحركة سيارات الجيب هذه لا تتوقف، ذهابا وإيابا؛ وكثيرا ما نشاهدها توقف سيارة او تاكسي اجرة للتحقق من هوية الركاب، وخصوصا إذا كان هؤلاء شبانا في معظمهم. أما المستوطنون فيمكن التعرف اليهم نتيجة كونهم، في معظمهم، يعتمرون القلنسوة الدينية التقليدية. والمستوطنون الذين نصادفهم هم أولئك الذين يسكنون المستعمرات التي تقع على رؤوس التلال المحيطة بالقدس. وهكذا، فان لمدن الضفة الغربية كافة «حزاما» من القلاع الرمادية التي تشبه في هندستها محطة فضائية مستقبلية.

الى يسار الطريق يقع مخيمان للاجئين: قلندية والأمعري، ويبعد الواحد منهما عن الآخر بضعة كيلومترات. وكلاهما محاط بجدار كبير يخفيهما عن الأنظار، بحيث أننا لا نكاد نلمح واحدهما حتى نكون قد أصبحنا على الطريق الرئيسية. فالهدف الرسمي للجدار هو الحيلولة دون حجارة الأطفال التي تقذف من المخيم على السيارات المارة. والى ذلك، فان الجدار هو ولا ريب وسيلة لتلافي رؤية، او لمنع السماح برؤية إدقاع الأمكنة في الجانب

الآخر وبؤسها (مثلما ان المدن الصفيحية في بلاد العالم كافة تُوارى عن الأنظار بواسطة الجدران)، كما انه وسيلة أيضا لعزل المخيم عن باقي العالم، ومحاولة «تكييس» المشكلة ومحاصرتها، وأداة للتعتيم والتكتم على كل ما يجري في الداخل. وهكذا، فان من يمر بمحاذاة المخيم لا يستطيع ان يتنبأ بما إذا كان الوضع في داخله هادئا ام لا، وما إذا كان ثمة تظاهرات، وما إذا كان الجيش قد فرض حظر التجول. فحظر التجول بالنسبة الى سكان المخيمات، ولا سيما مخيمات قطاع غزة، ليس وضعا استثنائيا بل الاستثنائي هو عدم وجوده. وقد سدت مداخل المخيمات الرئيسية بصفائح ضخمة متراصفة لا تترك للمارة سوى منفذ صغير. وتعلو هذه المداخل وتشرف عليها مراكز مراقبة الجنود الاسرائيليين الذين اختاروا بطاحا مرتفعة كي يتمكنوا من مراقبة حركات الذهاب والإياب كلها داخل المخيم. ويبدو هذا الشكل غير مؤذ تقريبا إزاء ما يمكن ان نلاحظه في مخيمات اخرى للاجئين: فمخيم الدهيشة القريب من مدينة بيت لحم محاط بتشبيك عال جدا، كما نجد على مسافات منتظمة في هذا السوار مناثر وضعت عليها مراكز مراقبة للجنود. ويثير هذا المشهد في النفس صورة خم دجاج عملاق مرة، ومعسكرات التصفية السيئة الذكر مرة اخرى.

فاذا ما تجاوزنا مخيمي قلندية والأمعري، واصلت الطريق صعودها حتى البيرة ورام الله. وعلى كلا جانبي الطريق تظهر «فيلّات» موسرة، مبعثرة، تملكها أسر فلسطينية يعمل احد أفرادها في احدى دول الخليج. وما يجذب الانتباه كثرة «أبراج إيفيل» التي «تزهر» على السطوح: ولا بد من ان احد الحدادين حقق ثروة حين أطلق فكرة هذه الدعامة الخاصة لقنوات التلفزيون! والبيرة ورام الله مدينتان متداخلتان بحيث أننا ننتقل من الواحدة الى الأخرى من دون أن نلحظ ذلك. وحين وصلنا كانت جميع الستائر الحديدية مسدلة، ذلك بأن الإضراب العام قائم منذ بضعة أشهر: فلدى ظهيرة كل يوم يقفل التجار حوانيتهم، ويعود الطلاب الى منازلهم. حركة السير هينة لينة، والدوريات العسكرية تتوالى. وسرعان ما تعتاد العين على استكشاف نقاط

مراقبة الجنود في ذرى بعض المباني: فهذه النقاط تقع بصورة خاصة عند المفترقات المهمة، وفي النقاط «الاستراتيجية». وحين يمر المرء بموازاة أقدامهم حين تخمد حركة الشارع، فانه لا يستطيع الامتناع من الشعور بأقدام من رصاص تتحرك وراء المناظير التي يشعر، مخطئا او مصيبا، بأنها مصوبة عليه! وهناك كذلك مجموعات صغيرة من الجند تتجول في الشوارع على الأقدام. . .

هنا بدأ فعلا أول لقاء لي مع الأحداث الفلسطينيين، بادئا بماهر وسيرين وياسمين، الذين تبلغ أعمارهم على التوالي ١٠ و٨ و٦ أعوام. ويقينا انهم لا يمثلون «الطفل الفلسطيني» من حيث انهم أبناء جامعيين لكنهم، شأن الأطفال الفلسطينيين كافة، يحملون تاريخا مكونا من المحن: فجدهم طرد الى الأردن في السبعينات، في حين ان والدهم زار السجون الاسرائيلية عدة مرات. وهم يعرفون ان الجيش الاسرائيلي يمكن ان يداهم منزلهم في اية لحظة ليقوم، في احسن الحالات، بعملية تفتيش، وفي أسوئها ليقتاد الأب مرة جديدة الى السجن، او ربما ــ من يدري ــ لطرده هو الآخر الى بلد آخر. . . وهم يعرفون ان أباهم لا يستطيع ان يقود سيارته ليوصلهم الى المدرسة، لأن الحصول على ترخيص قيادة سيارة يحتاج الى إذن من الجيش يستحيل عليه هو الحصول عليه. وهم يعرفون انه إذا لم يكن لديهم جهاز هاتف، خلافا لكثيرين من أصدقائهم، فللسبب ذاته. وحين يذهب ابوهم في المساء لينام في مكان آخر، فان ذلك لا يدهشهم ولا يدفعهم الى طرح الأسئلة؛ فهم يعرفون أن كثيرين من الآباء والإخوة الكبار يفعلون هذا من حين الى آخر، تحرزا وأمنا، ولأنه يكفي ان تكون وطنيا كي تكون مشبوها. وبما ان الناس كلهم هنا وطنيون. . . فان عددا قليلا من الأسَر يستطيع ان ينام غافيا ملء عيونه.

ماهر يتحدث كثيرا عن الأوضاع، ويأتي كل يوم يحكي لي أحداث النهار. وهو ينطلق بصورة عامة من حادث وقع حقيقة (رأى سيارة جيب للجيش متوقفة لدى تقاطع طرق، وجنودا يتحققون من هوية أحداث بمدافعتهم الى الوراء. . . .)، ويخلط بين مختلف الحوادث الجسيمة التي جرت

في رام الله او في البيرة خلال الأشهر الأخيرة، ثم ينطلق في الاختراع فتزداد التفاصيل مَرَضية: الدم يسيل، والمخيخات تتفجر، ويضيع خيط القصة بينما يزداد السرد لاعقلانية («فالرصاصة صدمت رأسه ولم يصب بشيء، وارتدّت وأصابت الآخر في معدته...»). وفي غرفة الأطفال عُلِّق ملصق كبير على الجدار كتب عليه بالانكليزية «نريد ان نحيا بسعادة كسائر أطفال الدنيا.» ووفقا لماهر فانه ــ اي الملصق ــ يافطة صنعها هو ليشارك في «تظاهرة الطلاب» التي جرت في رام الله الشتاء الماضي. أما سيرين، فانها أقل تحدثا عن مشاهد مقلقة أمكن لها ان تكون شاهدة عليها، لكن الفراش الرطب الذي غالبا ما يجب تعريضه في الصباح للشمس تحت شرفة المنزل يتحدث، ولا ريب، نيابة عنها.

في بداية إقامتي، كان ماهر وسيرين وياسمين لا يزالون يذهبون الى المدرسة. والواقع ان العام الدراسي كان قصيرا جدا: فالسلطات العسكرية أقفلت المدارس في كانون الثاني/يناير، ولم تعد فتحها إلا في حزيران/يونيو، ويفترض ان يستمر العام الدراسي حتى آب/أغسطس. وعلى هذا، فانهم أمضوا شهورا طويلة في المنزل بحيث ان والدتهم عانت في إبان ذلك، لشغلهم، الكثير. ويروي هؤلاء الأطفال لي كيف ان «اللجان الشعبية» نظمت التعليم في الأحياء. و«اللجان الشعبية» هي هذه المنظمات «التخريبية» التي حظرتها السلطات العسكرية. و«اللجنة» كلمة لا تني تتردد في أفواه الأطفال والبالغين. ولا بد، من أجل إدراك دلالة هذه الكلمة، من ان نمر بكلمة رئيسية اخرى هي «الحارة» (اي الحي، وهو عبارة عن مجمل البيوت التي تحف بشارع واحد). لكل حارة لجنتها، وسكان الحارة كافة ضالعون، من قريب او من بعيد، في اللجنة؛ وعلى هذا، فان توقيف جميع أفراد اللجان الشعبية يعني، إذاً، وضع سكان الضفة الغربية وغزة كلهم تقريبا، في السجن (وهو كذلك الترجمة العملية لارادة توقيف الوطنيين كافة!) وتغطي نشاطات اللجنة كل مجالات الحياة اليومية، بحيث ان الكلمة لا تفعل سوى ان تكرس رسميا مسيرة او مسعى عفويا وطبيعيا لجماعة لا بد من ان تواجه شروط

المعيشة الصعبة: الأمر هنا امر تعاضد، تعاضد من أجل التفكير في أفضل الشروط للبقاء.

قررت اللجنة، اي مجمل سكان حارة ماهر وشقيقتيه، في إبان الشتاء (شأن اللجان المجاورة التي تواجه المشكلة ذاتها) تنظيم حملة تعليم في المنازل: وهكذا فانه جرى تشكيل مجموعات من الأطفال، وتصنيفهم وفقا لمستواهم الدراسي. وتولى التدريس السكان الأكفياء في الجوار القريب، ثم يعقبهم الأمهات ويساعدنهم. ويعترف الجميع بأن النتائج كانت هزيلة فيما عنى تمثل البرامج المدرسية: فقد كان من الصعب الاحتفاظ بوتيرة عمل منتظم يتجاوز تقلب الأوضاع، والابقاء على تعبئة «الأساتذة» المرتجلين الى هذا الحد أو ذاك، وتلامذتهم خلال فترات التوتر الكبرى (إضرابات عامة، وتظاهرات، وتدخلات الجيش في الحي، وتوقيفه بعض أقارب الأطفال او «الأساتذة»...). لكن، لنقل ان الأطفال لم ينسوا، على الأقل، الكثير مما كانوا اكتسبوه. ولا ريب ان الأمر الأساسي هو كونهم استطاعوا، بذلك، الاحتفاظ ببعض التنظيم المطمئن لحياتهم اليومية خلال بضع ساعات من النهار. ويتفق الأهالي والأطفال على القول ان العام الدراسي ضاع، كما ان الجميع يتساءلون عما يجب ان يكون عليه البرنامج المدرسي للعام المقبل من أجل تغطية التأخر من دون إجبار الأطفال على إعادة صفوفهم. لكن السؤال أيضا هو ما إذا كان سيكون هناك «عام دراسي» انطلاقا من أيلول/سبتمبر؟

في منتصف هذا الشهر، تموز/يوليو، عاد الأطفال يرتادون المدرسة كل صباح. لكن عبارة «كل صباح» هي عبارة عجلى: فأنا كثيرا ما أراهم يعودون بعد رحيلهم بنصف ساعة معلنين بابتسامة واسعة ان الجيش لم يسمح بفتح المدرسة اليوم، او انهم كانوا يعرفون سلفا انهم لن يذهبوا في الغد اليها لأن «القيادة الموحدة للانتفاضة» قد قررت ان يكون اليوم يوم إضراب عام. وفي اية حال، فانهم يعودون الى المنزل عند الظهر لأن المؤسسات التعليمية، شأن المتاجر والمكاتب، تقفل كل يوم عند الظهر احتجاجا على الاحتلال. وبعد الظهر تقوم الأم بتشغيلهم، والمعلمة تعطيهم فروضا لتحضيرها في المنزل.

لكن الجو ليس جو دراسة؛ فالجارة تقرع الجرس وتدخل لتحكي آخر الأخبار وتروي آخر توقيف. بعد ذلك يدخل آخر ليعرض برنامج يوم الإضراب العام للغد: فرجال الشارع جميعا ينظفون الأرصفة وساحة الناحية... أما الأطفال فانهم يغتنمون كل مناسبة ليفروا الى الجنينة، ويلتحقوا بأصدقائهم الذين لم يمتعهم القدر بأهل يستطيعون مراقبة فروضهم. ويجب ان نقول ان الفروض تبدو غير واقعية: فهي ولا ريب الفروض ذاتها التي تعطيها المعلمة كل عام لدى نهاية العام الدراسي، عندما يكون البرنامج منتهيا تقريبا، وعندما يكون الأطفال متملكين تماما لملكة التركيز لديهم، وحين تكون حياتهم «طبيعية»... ثم ان مظهر الكتب المدرسية لا يساهم في تحفيز الطفل على التغاضي عن هموم اللحظة وعلى الدرس: فالكتب تقدمها المدرسة، وهي قديمة ممزقة حزينة لا صور ملونة فيها؛ انها كتب النظام المدرسي الأردني الذي لا يحدث الطفل عن واقعه.

وتدور الأيام، التي يكون فيها مدرسة، على نحو خاص. فما ان تدق ساعة الظهيرة حتى نرى عناقيد من الأطفال والمراهقين يركضون في الجنائن، ويعبرون السياجات ويختفون بين المنازل. انهم لا يلعبون لعبة «الهر»... على الأقل ليس فيما بينهم. فهم إنما يحاولون الافلات من الجنود الاسرائيليين. فرماة الحجارة.. بعد الواقعة تماما هم هؤلاء. لكن لنعد قليلا الى الوراء... فبمقدار ما تقترب الظهيرة، ترتفع درجة التوتر في الشوارع بصورة باهرة. فالنساء ينجزن مشترياتهن في السوق، وبسرعة لأن المحال كلها ستقفل وحركة السير لا تزال كثيفة في الشارع الرئيسي، المنارة، وما يزيد في عرقلة حركة السير ان الجيش الاسرائيلي حدد الاتجاهات الممنوعة بصورة تجعل احتقان السير أمرا محتوما، وبحيث يصبح من المستحيل على اي متظاهرين ان يقذفوا حجارة او يرفعوا علما ليفلتوا بعد ذلك بسرعة من الدوريات العسكرية داخل سيارة. الناس كلهم أصبحوا عصبيين: فالنساء يجدن ان البائع لا يزن لهن الثمار بسرعة كافية، والسائقون لا يتوقفون عن استخدام كابح السيارة بعصبية وقوة، والأعين والآذان كافة هي في حالة استنفار. بل ان المرء ليشعر

بأن الجنود الذين يقومون بدورياتهم وسط الجمهور راجلين، هم أيضا أكثر توترا، وسيارات الجيب العسكرية تشق لنفسها طريقا وسط الزحام والضجيج بحيث أنها تحتاج الى معجزة كي لا تطيح بأحد. وما يزيد في التوتر ظهور بعض عربات الاسعاف قبل الظهيرة بخمس دقائق.. استعدادا لحالة ما لو... وكذلك ظهور بعض الصحافيين الباحثين عن «الحدث».

وساعة الظهر، تفتح المدارس أبوابها. فأما صغار الأطفال فان ذويهم ينتظرونهم (او ربما شقيق بالغ او شقيقة كبرى) ليعودوا بهم في سيارة، او على الأقدام. وأما الأطفال الأكبر سنا فانهم ينصرفون في مجموعات صغيرة. وكائنا ما كان المسار الذي يتخذونه فانه لا بد من ان يحاذوا مجموعات الجنود المتمركزين بأعداد كبيرة في هذه اللحظة عند المفترقات، كما لا بد من ان يحتكوا بالدوريات على الرصيف. والأحدثون سنا، فتيانا وفتيات، يسددون نحو الجند مسدسات وهمية يشكلونها من ثلاثة أصابع ثم يشاكسونهم بالعربية ويتهكمونهم او يشرعون في ترنيم أناشيد وطنية. التوتر في ذروته، والأطفال حبورون فرحون غير خائفين. فأما أكبرهم سنا، فانهم يبتعدون قليلا عن وسط المدينة فيحين دور الشوارع الصغيرة الجانبية لتعج بالحياة: تظهر الحجارة على قارعة الطريق فتجبر السيارات على التمهل في سيرها لتشق طريقا لها وسط العراقيل؛ أما العجلات المحترقة فترسل الى الفضاء دخانا اسود يجتذب الجنود؛ ثم ترتفع أعلام فلسطينية جديدة على شُرُط الكهرباء، تربط بخيط في طرفه الآخر حجر ثم تقذف لتستقر على الشُرُط الى جانب بقايا أعلام اليوم السابق. ثم يبدأ رماة الحجارة الهجوم، فرادى او منظمين...

ويصف الصحافي الفلسطيني داود كُتّاب، الذي راقبهم بصورة منتظمة طوال أشهر في مختلف مدن وقرى الضفة الغربية وغزة، توزع الأدوار بينهم تبعا للأعمار.[1] فالأصغرون سنا، اي الذين تتراوح أعمارهم بين سبعة أعوام

---

(١) Daoud Kuttab, «A Profile of the Stonethrowers,» *Journal of Palestine Studies*, Vol. XVII, No. 67, Spring 1988, pp. 14-23.

وعشرة، يتولون في الغالب جر العجلات الى وسط الشارع، ثم يصبون النفط عليها ويشعلون النار فيها. وأما من تتراوح أعمارهم بين أحد عشر وأربعة عشر عاما، فانهم يتولون بسبب نمو بنيتهم وضـع أكوام الحجارة على الطريق لإجبار السيارات على التمهل، ثم يقذفون حجارة صغيرة من حين الى آخر بـالمقلاع. لكن أكـثر من يبحث الجيش الاسرائيـلي عنهم هم «القـدامى المحنكون» (تتراوح أعمارهم بين خمسة عشر عاما وتسعة عشر) الذين يقذفون بأيديهم العـارية حجـارة هي من الكبر بحيث أنها تلحق اذى ملحـوظا بالدوريات او بالسيارات العابرة.

وفي احسن الحالات ينحسر الهياج قرابة الساعة الواحدة بعد الظهر، لأن الجنود أمسكوا ببعض الأحداث وضربوهم ثم أطلقوهم؛ ويكون مضى يوم مدرسي «عادي» في احدى مدن الضفة الغربية! لكن ثمة سيناريو آخر ممكن الحدوث: فهذه المشاهد «الرتيبة» يمكن ان تفلت من العقال في كل لحظة لتتطور في اتجاه انفجار عنف، فلا يعود أمام الصبية المتمنطقين حقائبهم على ظهورهم سوى الركض فرارا من رصاصات المطاط التي يطلقها الجنود، والتي بتنا نعرف قدرتها على القتل عبر إحصاءات الموتى والجرحى التي تزداد اهمية يوما بعد يوم.

ان نتخيّل للحظة ان الأطفال أمضوا صباحا مُجدّا في التحصيل هو وهم وطوباوية! اذ كيف يمكنهم ان يركزوا أذهانهم، وأن يتجاهلوا الأفق المرهوب للخروج من المدرسة؟ ومن ثمّ، فانه إذا أثار ماهر وسيرين وياسمين حديث المعلمة لدى عودتهم من المدرسة، فانهم يثيرون كذلك الأخبار التي تبادلها الأطفال فيما بينهم في إبان الفرصة: أخبار أحداث حقيقية مشوهة او متخيلة مختلطة تتعلق بآخر التوقيفات، والمداهمات في الليل، والتظاهرات المتوقعة. وأخيرا، فان من المستحيل تناسي الإطار المحيط حين نجتاز عتبة المدرسة، وخصوصا ان هذا الاطار نفسه يوشك ان ينبعث في كل لحظة داخل المدرسة على شكل مجموعة جنود يحاولون تخويف رماة الحجارة!

«تخويف» رماة الحجارة؟ لكنهم يبدون انهم كنسوا القوانين التي تحكم الخوف.

وبعد الظهر، يحاول الأهلون ان يبقوا أطفالهم داخل المنازل أطول فترة ممكنة: الأصغرون يأخذون قيلولتهم في انتظار ان يمر قيظ بعد الظهر؛ وأما الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية أعوام واثني عشر عاما، فينجزون فروضهم. وفي اية حال، فانه ليس في الوارد ملء الشارع بالصخب والصراخ قبل ان يرتاح البالغون داخل برودة البيوت المقفلة. ويلعب الأطفال داخل محيط الحارة، ثم وبصورة خاصة في الشوارع التي لا تسلكها السيارات، او يركضون من جنينة الى اخرى.

أولا: الأطفال دون ثمانية أعوام

اجتمع اصغر أطفال الحي وأعمارهم تتراوح بين اربعة أعوام وستة؛ يلعبون قرب حائط صغير لعبة «الأبطال والحرامية» (اللصوص). يرمز الحائط الى السجن، وفيه مجموعة «فلسطينيين» معتقلين. وفجأة يفلت المعتقلون وتبدأ «تظاهرة» كبيرة. فيرفعون جميعهم شارة النصر صارخين بكل ما في حناجرهم من قوة «PLO, PLO» (الحروف الأولى من اسم منظمة التحرير الفلسطينية بالانكليزية) فيسرع «الجنود الاسرائيليون» ويتشبثون بـ «الفلسطينيين» ويهزونهم ويعيدونهم الى الحائط مسجونين، ثم يبتعدون راضين. فتعود اللعبة الى مبتداها، وتتكرر الى ما لا نهاية... وعندما أسأل الأطفال عما يصرخون، يكررون كلمة «PLO»، لكنهم بطبيعة الحال يعجزون عن تفسير معنى الكلمة. وهم يجدون لذة واضحة في لعبة الأدوار هذه: «فاللعب يمكن ان يشكل بالنسبة الى الطفل وسيلة للتخلص من بعض المخاوف، لا بل لتحويل الخوف الى لذة.»(٢) كيف يدركون، في هذه الشريحة من العمر، الأحداث المأساوية التي يمكن ان يشهدوها؟ وكيف، او ما هي ردات فعلهم على الروايات المختلفة

(٢) Michel Zlotowicz, *les Peurs enfantines*, Paris, PUF, 1974, p. 152.

التي يسمعونها، وعلى قلق أهليهم الدائم؟ حاولنا ان نعرف ذلك بأن التقينا أمهاتهم من جهة، ومعلماتهم في رياض الأطفال من جهة اخرى.

والأمهات اللاتي التقيناهن يُجِدْنَ التعرف الى تجليات القلق لدى أطفالهن إجادة تامة: وجه شاحب اصفر وخرس لدى العودة من المدرسة يدل على حدوث المواجهة على طريق العودة مع مشهد صادم او مولد للجرح النفسي؛ فقدان الشهية؛ صعوبات الإغفاء؛ الرعب والكوابيس الليلية؛ حوادث «تبول في الفراش» ليلية او نهارية... ولا تملك هذه الأمهات وسيلة لمعونة أطفالهن عندما يلاحظن بروز مظاهر قلق كهذه، بل انهن يلححن على واقعة استخدامهن لكل طاقاتهن لمواجهة قلقهن هن انفسهن. وأنه يعوزهن، بالتالي، التوفر على مساعدة الطفل نفسانيا. وتصف الأمهات هذه الأعراض كافة بكثير من التأثم والشعور بالذنب: اذ يأخذن على انفسهن مأخذ إنجابهن أطفالا ليفرض عليهم ان يعيشوا حياة بمثل هذه القساوة. فهن يعشن، عبر هؤلاء الأطفال، التجارب المؤلمة التي عشنها في إبان طفولتهن: التهجير بالنسبة الى البعض، والتنكيل او التوقيفات التي تعرض أهلوهن لها. وهن يرين الى أطفالهن كحلقة في سلسلة طويلة تمر، بما تمر به، بأيلول الأسود في الأردن، وصبرا وشاتيلا في لبنان. وإذا كن جميعهن يعرفن ان الآونة ليست آن المصلحة الفردية، وإذا كن جميعهن يؤكدن تصميمهن على مواصلة الكفاح الى ان تتحرر فلسطين، حتى لو كان ثمن ذلك آلاما متعاظمة، إلا انهن لا يخفين لحظات إعيائهن النفسي وانهيارهن العصبي؛ فأغلبيتهن لا تغفو إلا بعد تناول المنومات والمُسَكِّنات. وهن واعيات لما يفوت أطفالهن عندما تقفل رياض الأطفال. لكنهن يشعرن بأنهن أكثر تجردا وعوزا من ان يستطعن التعويض من ذلك: ولهذا، فان امنيتهن هي إنهاض تنظيم اوفى وأعظم فيما بينهن، بحيث يستطعن استخدام الكفاءات على مستوى الحي.

وإذا كانت الأمهات اللاتي التقيناهن في البيرة يستطعن فهم إشارات القلق التي يرسلها جيل الأحداث، فالحال ليست كذلك في الأوساط الأكثر إعوازا وأقل حظوة من الناحية الثقافية.

ثم ان الراشدين كثيرا ما يحتمون خلف قناع كونهم مناضلين ليتلافوا مواجهة قلق أطفالهم، وبالتالي كي لا يواجهوا قلقهم هم انفسهم. وهو امر أمكن لنا ان نلاحظه حين ذهبنا نلتقي أطفالا ومربياتهم في روضة أطفال تابعة لاحدى الجمعيات في البيرة: فللاجابة عن أسئلتي في شأن سلوك الأطفال الصغار منذ بداية الانتفاضة، قدمت لي احدى المربيات صورة للطفل الفلسطيني «الذي لا يخشى ولا يهاب»؛ للطفل ــ البطل الذي يواجه الجندي بسني عمره الخمس؛ للطفل الذي لا يعرف القلق ولا يغني إلا أناشيد وطنية! وإذ وجدتني غير مصدقة، شاءت ان تقدم لي البراهين. وهكذا، فان مجموعة من الأطفال دخلت المكتب، فاقترحت المعلمة عليهم ان يغنوا لي اغنية أطفال تدور حول أرانب صغار. . . غير ان الأطفال ما لبثوا ان توقفوا مزعوجين لدى بلوغهم الجملة الثانية من الأغنية: «أرأيت! انهم لا يحفظونها لأنها لا تعنيهم.» ثم غنوا، بناء على طلبها، عدة أناشيد وطنية يحفظونها عن ظهر قلب! وإزاء إلحاحي على القول ان لا وجود لأطفال لا يعرفون الخوف في اي بلد من بلاد العالم، فانها انتهت الى تقديم تنازل وقالت: بلى. يمكن ان يبدي بعض تلامذتها علامات خوف، لكن الخطأ في ذلك يقع على عاتق الأسر والعائلات التي تحكي لأطفالها حكايا تبعث على الخوف لحملهم على الطاعة! واعتقادي انه يكمن، فيما وراء رغبة المعلمة المذكورة، إعطاء وافدة من الخارج صورة جميلة للانتفاضة. غير أنها كانت تتحدث الى نفسها خاصة، وتحاول ان تطمئن ذاتها عبر هذا الإنكار.

تشكل حاجات الأطفال النفسانية حيزا لا يتحسسه الجمهور عامة إلا قليلا. والملاحظة ذاتها تصح على الصحة العقلية عامة. وفي هذا المجال، تخضع الضفة الغربية للقوانين ذاتها التي تخضع لها الدول العربية المجاورة: فالشواغل حول الصحة العقلية لا يمكن ان تتنامى إلا بعد ان يجيب المجتمع على حاجاته الرئيسية كافة. وهياكل العناية النفسانية العادية او النفسانية السريرية محدودة العدد؛ وباستثناء بعض تجارب متابعة مراهقين ما قبل ــ جانحين في طولكرم مثلا، فان هذه الهياكل تعنى بالراشدين أساسا: فثمة

مستشفيان للطب النفسي للراشدين، أحدهما في بيت لحم والآخر في مدينة غزة. وحين قدّر لي ان ازور أحدثهما، اي مستشفى غزة (افتتح سنة ١٩٨٠)، لاحظت ان الطب فيه يعمل بوسائل محدودة جدا، وأنه مضطر الى ان يقتنع باحتواء الأعراض الفادحة للأمراض العقلية الجسيمة.

وعلى العكس من ذلك، فان المجموعات والفرق التي تنشّط رياض الأطفال الريادية ومدارس مربيات الأطفال، تتحسس تحسسا عميقا الحاجات النفسانية لصغار الأطفال ولخصوصيات هذه الحاجات في سياق العنف المحيط. فهذا، مثلا، هو حال الفريق الذي تتولى زاهرة كمال تنشيطه في إطار جمعية نسائية، او مجموعات مثل «مركز مصادر الطفولة المبكرة» التابع لجمعية الدراسات العربية في القدس، او الفريق الذي تتولى ماري خاص تنشيطه في غزة في إطار وكالة الأمم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا).

وقد لاحظن جميعا، في إطار رياض الأطفال اللاتي تؤطرنها، نتائج الوضع السياسي السلبية على نمو الأطفال الاجمالي. أولا، لأن الفترات الطويلة التي يمضيها الأطفال بعيدا عن الصفوف، بسبب الإقفال المفروض على الرياض، تحول دون تحقيق التحصيل وفق الوتيرة الاعتيادية. وما يزيد في كون تحفيز الأطفال في إطار رياض الأطفال أمرا لا غنى عنه لنموهم المعرفي الأوفى، هو ان الطفل ينتمي الى وسط اجتماعي ــ ثقافي معوز. وأطفال المخيمات هم الأكثر تضررا وتأثرا بسبب فترات حظر التجول الطويلة التي تحكم عليهم بالاحتباس من دون نشاطات تكوينية في غرف تحفل بأعداد هي أكثر مما تطيق! وحين يعود الأطفال الى صفوفهم، فان المربيات يشعرن بأنهم ليسوا متوفرين على التحصيل: فهم إما بالغو الانكباح والانكبات والكف، وإما مهتاجون مفرطو النشاط بحيث ان أول ما يترتب على المربيات هو مساعدتهم في إعادة تكوين انفسهم واستخراج الانفعالات التي عاشوها لتوهم. وليست مساعدتهم في الاعراب عن مخاوفهم أمرا سهلا: فالأطفال في الأعمار التي تتراوح بين اربعة أعوام وستة يموهون، وخصوصا في المخيمات، قلقهم تحت سمات

الهيبومانيا «hypomaniaque» (إفراط النشاط، التخريف، العدوانية، الاندفاعية)، او يلوذون بالخرس والتباطؤ العام. والمربيات الأوفى إعدادا وتدريبا واعيات للتأثير الذي يمكن ان يكون لهذه الأحداث في المدى الطويل، وخصوصا كل هذا العنف، على نمو الأطفال العاطفي والمعنوي.

وتحاول آسيا حبش، المكلفة ان تنهض مشاريع في «مركز مصادر الطفولة المبكرة»، ان تطور بخاصة محوري عمل اثنين: تحسيس الأهلين والمربين بآثار الجروحات التي يعيشها الأطفال؛ وإنهاض نشاطات تساهم في يقظة الأطفال الذهنية وفي نمو شخصيتهم نموا متناسقا، من دون قطعهم عن الوسط الاجتماعي السياسي الضروري. وفيما عنى تربية الأهلين في الأوساط الأكثر عوزا، فان الفريق كان يعمل، وقت زيارتي، على عدد من مشاريع الرسوم التي تظهر، عبر ملصقات او مناشير يفترض ان توزع عليهم، السلوك الذي يجب اتباعه لمواجهة مظاهر القلق لدى الطفل (أنظر اللوحات في الملحق).

كذلك، فقد كان المركز يعمل على تجديد مجموعة تراثية من أغاني وأناشيد الأطفال، ساعيا لإيجاد منزلة بين منزلتي الأناشيد الوطنية التي ينشدها الكبار، وبين العدّيات (التي تغنى لتعيين من يقع عليه دور اللعب) التقليدية المنقطعة عما يعيشه الأطفال في حياتهم اليومية: فنصوص الأناشيد والأشعار وموضوعات نشاطات صفوف الحضانات يجب ان تتمحور حول تأكيد هادىء هانىء للتعلق بالأرض، تاركين للطفل فرصة موضعة نفسه في النزاع وفقا لوتيرته هو، على امتداد دراسته العتيدة.

وتقدم ماري خاص، المسؤولة عن تربية صغار الأطفال في الأونروا، لوحة عن الأطفال الذين ترعاهم في غزة، تثير أبلغ القلق.

وينبغي لنا ان نقول ان شروط المعيشة في قطاع غزة هي شروط مأساوية،(٣) على أكثر من صعيد: فالفقر والاكتظاظ هما اللوحة الخلفية

---

(٣) أنظر:

Zyad Abou 'Amr, «Les conditions sociales dans la bande de Gaza», in Camille Mansour, *op. cit.*

للمواجهة التي تدور مع الجيش الاسرائيلي. اذ تعيش مدينة غزة ومخيمات اللاجئين في القطاع حالة منع تجول متنقل شبه دائم. وهكذا فاننا استطعنا، حين كنا في غزة، ان نلتقي سكان مخيم خان يونس الذين كانوا يعيشون يوم حظر التجول الخامس عشر، من دون مياه ولا كهرباء. وكان الأشخاص القليلون الذين كان مرخصا لهم بالذهاب والإياب، يحاولون عبثا ان يحضروا معهم بضع زجاجات من الماء، اذ كان الجنود يصادرونها منهم عند مدخل المخيم.

ومن جهة اخرى، فان تغيرات خبيثة وقعت منذ بداية الاحتلال سنة ١٩٦٧، في نطاق التنظيم الاجتماعي، تنيخ بصورة جسيمة على صحة الأطفال العقلية. ونجد في أصل هذه التغيرات اتساع البطالة الذي دفع بالعديد من أرباب الأسر ومن المراهقين الى العمل كعمال غير مؤهلين، في اسرائيل. وكانت نتيجة هذه الظاهرة تمزق التنظيم العائلي التقليدي: غياب الأب الذي يحتجزه عمله بعيدا عن اسرته؛ مرارة وتمرد رب الأسرة الواعي نتيجة الاستغلال الذي يتعرض له في سوق العمل الاسرائيلية؛ نزاع القيم بين المجتمع الاستهلاكي الاسرائيلي الذي يتم الاتصال به في مكان العمل، وبين المجتمع التقليدي الفلسطيني. ولعل هذا الوضع كان أكثر تدميرا على مستوى المراهقين (الذين يعملون، في معظمهم، في سوق العمل السوداء)، بل لعله يمكن ان يفضي الى الانحراف: فاحتجاجهم على سلطة رب الأسرة إنما يستند الى استقلالهم المالي، والى اختبارهم وتجربتهم لنظام قيم آخر في المجتمع الاسرائيلي. وإذا ما استخدمنا الماضي لوصف هذا الوضع، وجدنا ان العمال الغزاويين، الذين لا يزالون يذهبون الى العمل في اسرائيل، قد أصبحوا منذ بداية الانتفاضة ندرة نادرة. وعلى هذا فانه يبدو، في رأي الجامعيين المختصين بغزة، وفي رأي العاملين في الحقل النفساني ــ الاجتماعي على الأرض، ان الشروط السائدة لدى جزء من البروليتاريا الدنيا، تشكل أرضا خصبة تؤاتي نمو حالة مرضية موجودة، أقل كثيرا، في الضفة الغربية.

ولا ريب انه ينبغي لنا ان نعزو الى هذا الوضع كله ما اكتشفناه بذهول في المقر الفرعي لمنظمة «ارض البشر» (La terre des hommes) في مدينة غزة:

فقد شاهدنا أطفالا صغارا جدا في حالة سوء تغذية قصوى، يحملون الندوب والآثار ذاتها التي يحملها الأطفال الذين يعانون سوء التغذية في افريقيا. . . وكانت قصص الحالات التي استطعنا سماعها، والمقابلات التي أجريناها مع بعض الأمهات الحاضرات، تشير بوضوح الى سببية مزدوجة: فهي نتيجة فقر أقصى من جهة، ونتيجة مَرَضيّة العلاقة «ام ـ طفل» في سياق اضطراب شخصية الأم. وكان هؤلاء الأطفال الصغار، في معظمهم، «مشتركين» في «ارض البشر»، المنظمة التي كانت مُسَاعِداتُها الاجتماعيات يأتين بهم بصورة منتظمة الى المركز (وذلك بمقدار ما كانت المناطق المعنية غير خاضعة لحظر التجول!) بمجرد ما ان يعود وزنهم فيصبح كارثيا داخل الوسط العائلي. كان هؤلاء الأطفال، في معظمهم، بناتا وينتمون الى أُسر تضم العديد العديد من الأبناء. ولم يكن مصدر هؤلاء كقاعدة عامة، مخيمات اللاجئين (حيث يتمتع التنظيم الاجتماعي والرقابة الاجتماعية بالفاعلية) وإنما أفقر أحياء المدينة، حيث يختلط أبناء المدينة، واللاجئون الخارجون من المخيمات ليشكلوا بروليتاريا ـ دنيا جديدة.

لكن، لنترك «الباهر الملف للنظر» (والذي لا يغطي إحصائيا شريحة مهمة من السكان، وإن كان يستوقف المراقب ويشده بصورة بالغة الفظاظة!)، ولنعد الى الحياة اليومية لأطفال الانتفاضة. ان الأمر، كما تراه ماري خاص، هو امر نقل رياض الأطفال نحو الأطفال الذين يعيشون القسم الأعظم من الوقت في ظل حظر التجول: فقوام النشاط الرئيسي لمربيات الأطفال هو ان يذهبن الى المنازل في المخيمات لتوزيع معجونة التشكل وأقلام الرصاص وأقلام التلوين والورق، وأن يفسرن للأمهات كيفية مساعدة أولادهن في استخدام وسائل التعبير هذه. أما مقتضيات التحفيز الذهني للأطفال، فانها انتقلت الى المرتبة الثانية: فالأولوية هي لاستخراج التأثرات. وتُولي ماري أولوية مطلقة لاقامة مستوصف للصحة العقلية، وللبحث عن استراتيجيات متكيفة لمساعدة الأطفال الصغار وعائلاتهم على عيش التوترات الكثيرة التي يواجهونها.

وستتاح لنا، في القسم الأخير من هذا الكتاب، فرصة إثارة النتائج المتوقعة في المديين المتوسط والبعيد، للجروح النفسية، في ضوء الدراسات التي جرى إنجازها مع أطفال في دول اخرى تهزها، هي الأخرى، الحرب. ان جولة الأفق هذه هي بالتأكيد جولة وجيزة جدا ومفرطة السطحية، وسيكون من الضروري التمثيل لها والاشهاد عليها بسرد حالات لإظهار الموارد والحدود النفسانية للأطفال في كل مرحلة من نموهم وتطورهم، تبعا لقساوة الجرح النفسي المُعَاش. ومثل هذا العمل لا يمكن ان يتم في إثر إقامة شهر في الأراضي المحتلة، وخصوصا ان من المستحيل تقميش وتجميع ملفات أطفال سبق ان جرت متابعتهم نفسانيا لمعالجة جروحات نفسانية محددة وواضحة (بعد جرح برصاص، او بعد اقتحام الجيش لمنزل الأهل، او بعد نسف المنزل العائلي، او بعد سجن احد الأبوين، او بعد طرد الأب... إلخ). وقد رأينا ان لا وجود لفريق يتولى حاليا مثل هذا العمل المنتظم.

وثمة، من الجهة الأخرى، تقميشات يسهل القيام بها: تعداد الموتى والجرحى، والسجناء الفلسطينيين، والبيوت المدمرة، ومساحات الأراضي المصادرة. لكن الجرح النفساني يأبى ان يتحجم ويتقلص الى أرقام. ثم اننا لا نستطيع ان نكتشفه من دون ان نلمسه: المسألة ليست مسألة ان يتحول المراقب الى مجرد ناظر يتلذذ بما ينظر اليه. فمن حقنا ان ندخل حميمية ما يعيشه الطفل المجروح في حالة واحدة وحيدة، هي ان يفضي المسعى الذي نقوم به الى تدخل شفائي!

الثلاثاء، ١٢ تموز/يوليو، مستشفى رام الله: أجدني في غرفة تضم عدة مرضى. أحدهم يدعى حسن عبد الرحمن، عمره ٢٧ عاما. وهو من عرورة. في حزيران/يونيو الماضي، وبعد صدامات بين أهالي عرورة والجيش، دفنه الجنود حيا. وقد استخرجه أهالي القرية، الذين أدركوا ما حدث، من تحت التراب. وقد روى حسن كابوسه واصطحب صحافيا الى المكان الذي جرت المأساة فيه. بعيد ذلك بقليل جاءه من يعتقد، هو وعائلته، انهم من المخابرات

ببزات عسكرية، وأخرجوه من غرفته وأشبعوه ضربا «ليتعلم ألا يتكلم مرة اخرى». حسن موجود هنا أمامي؛ رأسه ملفوف بضماد هائل، حدث له جرح بليغ قاس في الجمجمة افضى الى حبسه عن الكلام. وهو يحكي لنا حكايته متلفظا، بعسر وعناء، ببضع كلمات يصعب فهمها مستعينا بجمل قصيرة يكتبها على دفتر صغير. ولحسن هذا أطفال تتدنى أعمارهم عن ستة أعوام: فكيف تراهم عاشوا هذه الأحداث المتوالية؟ كيف ستكون ردات فعلهم بعد أعوام عندما يـدركون فظاعة ما حدث؟

الثلاثاء، ١٩ تموز/يوليو، غرفة الأساتذة في مدرسة رام الله: أنتظر ان استرجع الاستمارات التي يقوم احد الأساتذة بتوزيعها على تلامذته. دخلت امرأة، تعلّم في المدرسة، القاعة مصحوبة بطفلتها التي يبدو أنها في الخامسة او السادسة من العمر ــ كل الحاضرين يرحبون بالعائدة. فقد خرجت من السجن هذا الصباح، وجاءت المدرسة لتطمئن زملاءها الى مصيرها. انها تحكي حكاية توقيفها. فقد اقتحم الجنود منزلها، وبدأوا بالتفتيش ووجدوا لديها مبلغا من المال مهما واتهموها بأنها حلقة في سلسلة لتهريب المال لمصلحة الانتفاضة.(٤) والتفسيرات التي قدمتها لتبرير حيازتها لمبلغ نقدي مهم (وهي ممارسة أُسرتها كما فهمت لتجارة الجملة) ظلت من دون تأثير. وهكذا، فقد اقتادها الجنود الى الاعتقال الموقت.

الطفلة الصغيرة تلتصق بأمها التي تحكي، وتمسك بأذيال ثوبها وتنظر اليها بعينين جاحظتين، وهي جامدة لا تضيع كلمة من السرد الذي سمعته ولا ريب عدة مرات. لكن أحدا لا ينظر الى الطفلة الصغيرة، فالأعين كلها مثبتة على أمها.

ثم ان الأم شرعت، بعد ذلك، في حكاية مختلف مراحل اعتقالها: إقامتها في زنزانة صغيرة جدا حيث يستحيل الجلوس (ضرب من «الخزائن»

(٤) يسهر الجيش الاسرائيلي على مراقبة دخول كل رؤوس الأموال الخارجية، المخصصة لدعم جهود انتفاضة الفلسطينيين.

المجمعة أربعة أربعة، وتفتح الواحدة على الأخرى من أعلى لأن الحواجز بينها لا تصل الى السقف)، ثم نقلها الى غرفة أكبر قليلا مجهزة بمرحاض مبتسر (ثقب في أديم الأرض)، وأخيرا إقامتها في باحة في الهواء الطلق تحت حرارة الشمس في النهار والبرد في الليل. وكل ذلك في وضع الجالس، ويداها مقيدتان من خلف الى دعامة... وتواصل الأم الكلام شاكية من ظهرها المُبرِّح: فهي مجهدة جسديا بأيام الكابوس العشرة، إلا أنها تروي بفخر الغطرسة التي تكلمت بها مع الجنود الاسرائيليين، وتندد بحماسة وحمية بالمعاملات اللاإنسانية، وتثير ـ بانفعال ـ قدر السجناء الذين خلفتهم وراءها.

والطفلة الصغيرة لا تزال بلا حراك. شدت ولم تكد ثوب أمها بقوة أوفى حين تحدثت هذه الأخيرة عن الجرذان والصراصير الذين يذهبون ويجيئون في الزنزانات. كم من يوم وليلة تحتاج هذه الطفلة كي تنسى الجنود الذين جاؤوا وراء والدتها يقتلعونها من سكينة العلائق التي هي مرادف الأمان؟ وهل تراها ستفهم لماذا ذهبت أمها الى «السجن»؟ فالأطفال يعرفون ان «الأشرار» وحدهم يذهبون الى السجن. أفمن السهل الإدراك هنا ان الخلقية التبسيطية ليست سارية المفعول؟ ان الأطفال الأكبر سنا يعرفون ان الاعتقال في سجون المحتل يضفي مهابة معززة. لكن ماذا عندما يكون عمر الطفل خمسة أعوام أو ستة؟

ثانيا: الأطفال بين ثمانية أعوام واثني عشر عاما

بدا لنا ان خير أدوات يمكن استخدامها لتقويم مُعاش الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٨ و١٢ عاما، ربما كانت المقابلة او المحادثة الفردية والرسم. وينبغي للمقابلة ألا تكون موجهة جدا كي لا تفضي الى نمط خاص من الأجوبة، وكي لا يجري الانحياز بالموضوعات. غير انه ينبغي لها ألا تكون حرة بالكامل، وذلك كي تتيح إمكان القيام بتقاطعات وإيجاد قواسم مشتركة بين اجوبة الأطفال ورصد نزعاتهم.

وما اردت محاولة فهمه بصورة خاصة هو تأثير الوضع في دراستهم وفي

مشاريعهم المستقبلية وقيمهم وحياتهم الانفعالية والعاطفية، وفي قلقهم. وعلى هذا، فانني قررت ان استخدم نمط مقابلة قريبا جدا من ذاك الذي أستطيع استخدامه في ممارستي حين أجري مقابلة مع طفل أراه أول مرة، وينبغي لي محاولة فهم شواغله. وهكذا، فقد استبقيت في منهجي النقاط التالية:

١ ــ معلومات عامة لموضعة الطفل: اسمه، عمره، صفه، مدرسته، عدد اخوته ووضعه بينهم.
٢ ــ انطباعات الطفل عن عامه الدراسي.
٣ ــ تسليته وهواياته.
٤ ــ مشاريعه المستقبلية: مهنته، وأين سيعيش.
٥ ــ هل انت على وجه العموم طفل مرح ام حزين؟ ما الذي يمكنه ان يفرحك، وما الذي يجعلك حزينا.
٦ ــ مخاوفه.
٧ ــ ما هي آلم التجارب التي مرّت بك منذ بداية الانتفاضة؟ اي في اي يوم كان خوفك أكبر؟
٨ ــ النوم: مشكلات النوم الممكن حدوثها، الأحلام، الكوابيس.
٩ ــ إذا التقيت ساحرة وقالت لك «اني ساحرة وتستطيع ان تطلب وتتمنى ثلاث أمنيات أحققها لك»، فماذا تكون أمنياتك الثلاث التي تتقدم بها اليها؟
١٠ ــ الرسم الحر. ثم الطلب من الطفل بعد ذلك ان «يحكي الحكاية» المتضمنة فيها رسمه.

كان أطفال الحارة أسهل من يمكن التقاؤهم من الأطفال. وقد أفدنا من أيام الاضراب العام بخاصة، لتنظيم هذه المقابلات.

والواقع ان استحضار الأطفال الىّ لم يكن يطرح مشكلة: فقد تولى ماهر وسيرين وياسمين مهمة إحضار أصدقائهم بهمة ونشاط! لكن مقابلة طفل تعني إعداد مكان لذلك. . . وقد اعتدت ان التقي زبائني الصغار في خلوة حميمية

في مكتبي! وكنت اعرف بالتأكيد ان الانطلاق لرؤية الأطفال في وسطهم العائلي سيطرح عليّ مشكلات يصعب الالتفاف عليها: كانت الزيارة تأخذ وجه زيارة اجتماعية، فتقدم اليّ المرطبات وأُسأل عن صورة الانتفاضة في فرنسا، ثم يُطْلَب من الأطفال ان يرسموا لي «رسما جميلا» من دون ان أُتْرَك لوحدي مع الطفل، مجاملة وخشية ان يزعجني!

وعلى هذا، فان الحل الوحيد كان في اختيار مكان بعيد عن الراشدين: وبدا لي ان الحديقة ربما كانت خير مكان. وهكذا وجدتني تحت شجرة توت (التوتة الكبيرة التي يتغذى دود الحرير بأوراقها!) مع طاولة وكرسيين! وسرعان ما اجتذبت أقلامي وأوراقي، فضلا عن وضعي الغريب، الأطفال... فقد تألفوا حولي ودودين، جذلين، فضوليين... شرحت لهم عملي في فرنسا، وقلت لهم اني ارغب في معرفة أطفال الحارة بالحديث معا وبالرسم. ثم عرضت عليهم ان ألقاهم واحدا بعد الآخر.

وتبين لي ان مرحلة انتقالية ستكون ضرورية قبل بدء المقابلات. كانت أول صعوبة تكمن في جعل الأطفال يقبلون بمبدأ المقابلة في الخلوة الانفرادية! فالواقع هو انهم كانوا يرغبون جميعا في البقاء معي تحت التوتة، لكن كمجموعة وفريق! إذ بمقدار ما كانوا جزلين فياضين حيويين مرتاحين، بل مازحين مُدلين حين يكونون بين نظرائهم، بقدر ما كانوا ينزعون الى الجمود حين يجد الواحد منهم نفسه منفردا في خلوة معي! لكن نقاشا جماعيا كان سيفضي بي الى الحصول على أجوبة منمطة، كما ان أكبر الأطفال كانوا سيحتكرون الكلام. وعلى هذا، فاني واصلت مشروعي. وهكذا، فان المجموعة الكبيرة تجزأت بادئا الى مجموعات صغرى: مجموعات الرفاق المتلازمين. يبقى ان جاذبية العلاقة بالراشد المتميزة لم تكن تستطيع ان تتغلب بسهولة على الخجل والكبت والانكباح، ليس لأن «المتفرجين» لم يكونوا يريدون الذهاب فقط، بل أيضا لأن صاحب المقابلة لم يكن يريد هو أيضا ان يتركهم يذهبون. «أؤكد لك انهم لا يزعجوني. أُفضّل ان يبقوا!».

وبعد عدة محاولات وعدة لقاءات مع مجموعات الأطفال، فانهم انتهوا

الى القبول إجمالا بشروطي. وقد جرى العديد من المقابلات عند جدار في جنينة بمنأى عن نظرات الفضوليين، او في إبان ساعة القيلولة لتلافي مراودات بقيـة العصبة، المتحفزة أبدا لاستخدام خدع الهنود الحمر للاقتراب من مكان الموعد!

غير ان تدخل الأمهات تغلب على تفسيراتي لطبيعة عملي في فرنسا وبشأن رغبتي في الثرثرة معهم بحرية لأتعلم كيف أتعرف اليهم: فقد جئن هنّ أيضا في البداية يزرنني تحت التوتة! وبطبيعة الحال، فانني فسّرت لهن لماذا ارغب في التقاء أطفالهن، وعرضت عليهن ان التقيهن هن أيضا لأناقش معهن، في مجموعة، في شأن أطفالهن. وبعض منهن، برغبة كريمة منهن في مساعدتي، جئن بكراسي لهن عازمات على المسـاهمة في تنـظيم برنـامـج للأطفال: فأما الأطفال فقد تراصفوا بطواعية الواحد جنب الآخر، وأسمعونا جدول الضرب، وغنوا بعض الأغنيات. . . ومن أجل تشجيـع الأطفال على ان يرسموا لي «رسوما حلوة»، فان بعضهن قلن لهم وهن يغمزنني بطرفة عين غمزة المتواطئين معا، انني صحافية وانني سأعرض رسومهم على شاشة التلفاز في فرنسا. فكان عليّ ان اعيد تفسير الوضـع، وأن أقول ان «الرسوم الحلوة» لا تهمني، وانني لا أملك سوى بضعة أقلام ملونة لأعرضها عليهم، وذلك لغرض وحيد هو ان يرسموا ما يرغبون حقا في رسمه لمساعدتي على فهم ما يحبون وما يفكرون.

وإذا كانوا وجدوا عناء كبيرا في قبول الوضـع الذي عرضته عليهم، فلأن هذا الوضـع لم يكن يشبه اي شيء مألوف لديهم؛ فقد كنت أطلب منهـم في الواقـع تعلم علاقة بالراشد جديدة. وكان قد قُدّر لي أن ألاحظ الصعوبات ذاتها عندما كنت أعمل في بيروت: اذ بمقدار ما كان أطفال الأسرة الأكثر أخذا من الغرب وتأثرا به، معتادين على الألعاب التثقيفية وعلى موقف الأهل الإصغائي فينسون الكبت والانكباح بسرعة أمام غنى وثراء عَتادي من الألعاب والروائز المتوفرة في مكتبي في المستشفى، بمقدار ما كان الأطفال ذوو المستوى الثقافي ـــ الاجتماعي المتدني يحتاجون الى لقائي عدة مرات قبل ان

يتمكنوا من إطلاق حشريتهم وإظهار رغبتهم في معالجة الألعاب وفي اللعب! وما كان يعقد المشكلة هنا هو غياب مكان يمكن اللوذ به عن تدخلات الخارج.

وتتم العلاقة بالراشد، بالنسبة الى هؤلاء الأطفال، وفق نمط العلاقة بأفراد الأسرة الراشدين او بالمعلمين. وهي، في كلا الحالين، علاقة تتميز أساسا بخضوع الطفل لسلطة. هناك تبادل عاطفي (فيأتي الطفل الى امه طلبا للمواساة)، او تبادل معلومات (اذ يطرح الطفل سؤالا ملموسا على والدته او يجيب عن سؤال أستاذ)، في حين أنه يجد الآن الراشد، في هذه العلاقة القائمة حاليا، في وضع إصغاء مفتوح.

يبقى ان فترة التعلم لم تكن طويلة جدا: فبعد بعض المحاولات الناجحة الى هذا الحد او ذاك، دارت المقابلات بصورة راضية مرضية... فهناك أطفال ظلوا يدعونني حتى النهاية «Miss»، اي بالاسم الذي يطلقونه على مُدَرِّستهم. بينما فهم أطفال آخرون تماما روحية المقابلة، بحيث انهم كانوا يأتون ويقرعون جرس باب مضيفيّ ليحملوا إليّ رسما جديدا، او يحكوا لي حلما جديدا...

محمد، وسمير، ومجدي، وممدوح، وماهر، ووسام، ومايسه، وسيرين، أخرى، وفادي، وراوند، يحكون ويرسمون... رسومهم ليست «رسوما حلوة»؛ فهي لم تصنع لتكون تزيينية (للديكور). كانت في أغلبيتها مخربشة على طرف جدار، مرسومة على أمل أن تكون فرصة لمزيد من الكلام. وبعض هذه الرسوم ماثل في الوثائق الملحقة بالكتاب.

أ ــ ذوو الثمانية أعوام

محمد، عمره ثمانية أعوام ونصف العام، وهو في السنة الأولى الابتدائية في مدرسة تابعة للأونروا. يملك أهله دكانا يغيث الجوار كله فيها عنى التزود بالأشياء الصغيرة الضرورية للحياة اليومية. كما يتزود أطفال الحارة منها بالسكاكر. فمصروف الجيب امر ضروري بالنسبة اليهم، ويذعن أهلوهم

لمطاليبهم وخصوصا ان هذه المطاليب هي وسيلة بالنسبة الى هؤلاء الأخيرين لمحاولة إسكات شعورهم بالذنب، إزاء الحياة الصعبة التي يعيشها الأطفال. يساعد محمد والديه أحيانا في البيع، وهو فخور بذلك كثيرا. ويود ان يصبح طبيبا من دون ان يعرف كيف يفسر ذلك. ويبدو انه لم يستقر على رأي فيما عنى المكان الذي يود سكناه في المستقبل. يكون سعيدا «عندما يأخذني أهلي في نزهة ويعطوني مصروف جيب وعندما ألهو بعجلتي او ألعب مع اخي الصغير.» لكنه يحزن شأنه في ذلك شأن أطفال الدنيا كافة «عندما يضربني احد او يأخذ عجلتي او نقودي.» وهو يخاف «الحيّات... لأنها تلدغ.. والكلاب... لأنها تعض.»

وعندما أسأله عن أكثر ذكرياته درامية منذ بداية الانتفاضة، يذكر «يوم التظاهرة عندما أطلقوا النار في شارعنا... ومرة حين قيل ان المستوطنين سيأتون في الليل وأقفل ‹الشباب› الشارع... ومرة حين نام اليهود في مدرستنا.»

أما الأحلام التي يحلم بها في الليل، فترتبط برغبته في ان يصبح كبيرا ومستقلا، وكذلك برغبته في الهرب، في هذه «النزهات» التي لم يعد يستطيع القيام بها: «مرة حلمت بأنني اصبحت كبيرا وأنني اقود سيارة وآخذ أصدقائي الى مسبح عين الفشخة.»(٥) والكوابيس التي يتحدث عنها تذكر بكل الأحلام الصعبة التي يحلم بها كثيرون من الأطفال في عمره: «فمرة حلمت بحيّات». وأما أمنياته الثلاث التي يتقدم بها الى الساحرة، فمستقلة عن السياق النوعي الذي يعيش فيه: «ان تجعلني اصبح طبيبا، ويصبح عندي سيارة ومنزل كبير.»

رسمه هادىء وادع ويعيد الى رغبته في ان يكبر؛ العلم الفلسطيني يرفرف عاليا على مرتفع، والقصة التي يحكيها محمد هي إعراب عن مشروعه للحياة العسكرية في المستقبل:

«هناك جبل والعلم الفلسطيني عليه وشجرة... المنزل يعود لطفل ذهب

---

(٥) مكان استحمام ومنتزه يقع على ضفة البحر الميت قرب أريحا، وكان يغص بالزوار قديما.

الى السوق، انه الطفل الذي وضع العلم... يرمي حجارة، انه فلسطيني... يعيش مع ابيه وأمه وعمره خمس وعشرون سنة؛ يساعد الفقراء، ويوم العيد يوزع أكياس الأرز والسكر.» نستطيع ان نفهم من قوله «يعيش مع أبيه وأمه وعمره خمس وعشرون سنة» عدة أشياء ولا ريب: أخذ التقاليد التي تشاء ان يبقى الراشدون الشبان، وخصوصا العازبين، مع أسرتهم، بعين الاعتبار، وغموض الطفل إزاء واقعة الكبر، اوتعبيره عن إشكالية شخصية إزاء ابوين متسلطين. والرواية التي تحكيها سمر، شقيقة محمد وعمرها عشرة أعوام، حول رسمها، تعزز الفرضية الأخيرة:

«السماء، الشمس، العصافير، منزل، فتاة في حديقة... إنها ترقص، لقد خرجت من البيت، إنها تسكن وحيدة، وهي تذهب وتشتري لدى التجار... عمرها عشر سنوات، أهلها كانوا أغنياء وماتوا لأنهم كانوا عجائز... وهي مسرورة لأن أهلها قبل ذلك لم يكونوا يتركونها تذهب الى حيث تشاء خارج البيت.»

إذا كان بطل قصة محمد «يوزع أكياس الأرز والسكر» يوم العيد، فان مرد ذلك ليس ممارسة قديمة فحسب، بل أيضا لأن التضامن الاجتماعي اصبح على جدول الأعمال أكثر من اي حين مضى؛ وغالبا ما يسمع الأطفال الراشدين يتحدثون عن جمع مؤن ومال لتوصيل مساعدات، وخصوصا الى مخيمات اللاجئين في منطقة تعيش أحيانا عدة أسابيع في ظل حظر التجول (الأمعري، الجلزون، قدورة). كان يفصلنا فترة ذاك اسبوع او أقل عن عيد الأضحى، الذي هو في العادة مناسبة يكثر الانفاق فيها: وجبة العيد؛ ثياب جديدة لمجمل العائلة؛ هدايا مختلفة للأطفال. لكن كان ثمة هذه السنة إجماع على الاحتفال بالعيد بزهد واعتدال هذه المرة. فلم يكن المزاج فيما عنى الأضحى، شأن باقي الأعياد، مزاج احتفال وهدر. وستكون هدايا الأطفال رمزية. ففي حارة محمد وشقيقته، كان هناك بعض الأمهات اللاتي كن يقمن بحملة لتوجيه اختيار الهدايا وجهة الألعاب التثقيفية لا وجهة الألعاب المحتومة التي تسير لاسلكيا.

سمير هو أيضا تلميذ في السنة الأولى الابتدائية في مدرسة الأونروا. وهو يوجز العام الدراسي بالقول: «هذه السنة كان هناك يهود... وحدثت إضرابات ونام الجنود في مدرستنا.» انه طفل يلوح الوقار والجد على سيماه؛ يطرق الى الأرض حين يتحدث اليّ، لكنه يجيب عن الأسئلة بكثير من الثقة بالنفس. وهو يريد ان يصبح محاميا «لأنهم يعرفون الحقيقة». فالمحامون يحتلون منزلة مهمة في الحياة اليومية، والأطفال غالبا ما يسمعون أهليهم يذكرونهم: يتحدثون عن المحامي الذي يجاهد ليدافع عن فلسطيني اوقفه الجيش، وعن المحامي الذي يستشار لمعرفة ما إذا كان ثمة حظ في إمكان إقامة مشروع او الحصول على ترخيص ما. وسمير يتمنى ان يعيش في المستقبل في القدس «لأنني أحببتها حين رأيتها، وكل الناس الذين شاهدوها أحبوها.»

مخاوفه مرتبطة مباشرة بالوضع: «خفت يوم الجمعة. كان هناك إضرابات وكانوا يطلقون النار (بيطخوا)... خفت من الجيش ومن المستوطنين.» ويروي سمير انه لا ينام نوما هانئا في الليل: «أخاف ان يأتي الجيش الى منزلي.» وكثيرا ما يرى كوابيس؛ انه السيناريو ذاته الذي يتردد دائما: «داهم الجيش المنزل وأنا أحاول الفرار بنفسي...» وعندما أسأله: في اية أوضاع يشعر بأنه مسرور، يقول: «أكون مسرورا حينما يذهب الجيش»؛ وهو يشعر بالحزن «حين يقترب الجيش». وإنما يتمكن هذا الطفل من الابتعاد بعض البعد عن الوضع حين نسأله عن هواياته وتسليته: فهو يحب ان يرسم، وأن يلعب بالسيارات الصغيرة وبالكرة.

وأما أمنياته الثلاث التي يمكن ان يطلب الى الساحرة تحقيقها، فتعيدنا الى قلقه: «ان يذهب اليهود؛ ألا يطلقوا علينا النار؛ ألا يأتي المستوطنون الى منازلنا.» وأما رسمه، فانه يستعيد مشهدا مألوفا: «كان هناك أطفال يقذفون الحجارة وجاءت دورية أطلقت النار عليهم (طختهم) وعلى الناس، لكن الأطفال هربوا.» «الاطفال»، وحجارتهم في ايديهم، ثلاثة، شأن الجنود، وجوههم مموهة وراء «الحطة» (أنظر رسم سمير في الملحق).

مجدي يرتاد الصف نفسه في المدرسة ذاتها. وهو اصغر إخوته الأربعة.

انه قلق جدا في وضع المقابلة، ولا يتمكن من الانبساط، والاسترخاء، ولديه عرّة (تشنج عضلي) عصبية على مستوى الأنف (تتوارى عندما ينصرف ليلعب مع أصدقائه!)؛ وهو يجيب عن الأسئلة بصورة مقتضبة. يشعر بالسعادة او بالتعاسة بحسب ما إذا كان في صدد اللعب ام لا؛ ويتصور مستقبله في البيرة، ويريد «العمل في الجيش للدفاع عن فلسطين.». وهو على وجه العموم ينام نوما مريحا، لكنه يرى في بعض الأحيان كوابيس في نومه: «هناك احد يأتي في الليل ليسرقني من أهلي.» وهو يظل صامتا حين أسأله عن الأمنيات الثلاث التي يود ان يتمناها على ساحرته. ويبدو في رسمه، كما في إبان المقابلة، انه يرد على قلقه بالتلافي: فالديكور ليس هادئا ومريحا فحسب، بل ان البيت خاو لأن الأسرة ذهبت بعيدا عن الضفة الغربية وعن الاضطراب.

«بيت وشجرة وطاولة الى جانب العشب، كراس، موقد، قرميد، السماء والشمس... هذا منزلنا. لم يعد فيه احد. ذهبنا في رحلة الى عمان او الى مصر.»

سيرين تذهب الى مدرسة خاصة. وهي تحكي لي الصعوبات التي تواجهها في الانكليزية في الصف الابتدائي.(٦) مشاريعها للمستقبل قاطعة: «اريد ان اذهب الى المدرسة، وبعد ذلك أظل في البيت وأعمل... أُمرر الممسحة وأرفع الغبار، لا احب الخروج من المنزل للعمل... سأسكن هنا، لكن في منزل آخر.» أفراحها وأتراحها ترتبط بشواغلها كفتاة صغيرة: «اليوم أنا حزينة لأن امي رمت أقلام التلوين. لكني فرحة على وجه العموم، هكذا.»

كوابيسها تتصل بـ «اللصوص» غالبا: «في الليلة الماضية حلمت بأن لصا اتى وسرق من المنزل.» سيرين تخاف «الحيّات واليهود ومن يضربوني... أخاف ان يضربني اليهود!»

---

(٦) يتعلم التلاميذ في جميع المدارس الابتدائية اللغة الانكليزية الى جانب العربية، إلا في مدارس القدس التي يديرها آباء كنسيّون حيث اللغة الثانية هي الفرنسية.

أمنياتها الثلاث التي تتمناها على ساحرتها، هي ان يكون عندها «حذاء وشنطة وكتب للمدرسة ودفاتر.» ونذكّر هنا بأنه لدى إقفال المدرسة تستعيد هذه الأخيرة الكتب التي يوزعها المعلمون في مطلع العام الدراسي بحيث انه لا يبقى في حيازة الأطفال اي كتاب دراسي في بيوتهم.

الرسم ليس محملا كثيرا بالمعاني والدلالات. فسيرين ترغب في العودة الى اللعب مع صاحباتها اللاتي ينتظرنها. القصة هادئة رخيّة: «هناك شجرة وزهور. الشجرة نمت بمفردها، والزهور زرعتها امي.»

ب ـ ذوو العشرة ـ الاثني عشر عاما

ممدوح عمره عشرة أعوام ونصف العام، ويرتاد مدرسة تابعة للأونروا. وله ثلاثة اخوة وأربع أخوات.

يمضي ممدوح أوقات فراغه في الرسم ولعب كرة القدم في بورة الحارة. وهو يرجع مشاعره بالحزن والفرح الى علاقته بأنداده: «أكون سعيدا عندما يكون لدي الكثير من الأصدقاء، وأكون حزينا حين لا يكون هناك أطفال في الحارة، او عندما يتخلون عني.»

يريد ان يصبح «أستاذا او رساما... فنانا»، وأن يسكن «في مكان يكون الناس فيه جيدين، هادئين، في قرية... او ان أسافر حين أكبر الى عمان او الى الولايات المتحدة.»

أحلامه وكوابيسه تُرجع الى توزعه بين رغبته في الاستقلال، وبين القلق الذي يثيره التباعد عن أهله:

«حلمت مرة اني اعيش وحيدا واني متزوج ولديّ أطفال واني كنت بأحسن حال... واني ادرس في جامعة بيرزيت ولديّ سيارة... ومرة اخرى حلمت بأن أهلي رحلوا، وأنهم تركوني وأقفلوا عليّ الباب، وكنت خائفا.»

أمنياته الثلاث على ساحرته لا تتصل بالوضع: «ألا أمرض؛ ان أكون سعيدا وفير الأصحاب ولا يعوزني شيء وأن اتزوج.»

وفي حين انه لم يُشر، في إبان طرح الأسئلة المباشرة، الى مخاوف ترتبط

بالاحتلال الاسرائيلي، إلا انه سيعرب عنها في نهاية المقابلة وهو يفكر فيما سيرسم: «أوتعلمين، أخاف ان يقفلوا كل المخازن، وأن يقطعوا المياه والكهرباء، وألا تعود الناس تجد شيئا، وأن يدمروا المنازل. كل هذا يخيفني. هل ارسم لك تظاهرة؟» (أنظر رسم ممدوح).

«هناك أطفال، أقفلوا الطريق بالحجارة، جاء الجيش! رفعوا الأعلام و (الحطة). . . الصبيان، لفوا بالحطة وجوههم. . . نسيت شيئا، يحرقون العجلات.»

ماهر في مدرسة خاصة. وهو يروي سير العام الدراسي المتقطع، والأسابيع التي جرى تنظيم التعليم فيها في المنازل عندما منع الجيش فتح المدارس.

انه يريد ان يصبح فدائيا «للدفاع عن الوطن»؛ يود ان يعيش في البيرة: «لا احب ان اعيش في بلد آخر؛ فهنا اعرف كل الأطفال.»

أفراحه وأتراحه ترتبط كلها بحياته العلائقية: «كنت سعيدا منذ أيام مثلا حين تسابقت على الدراجة وكسبت السباق. وأكون حزينا حين يكون هناك شجار بين الرفاق، او حين يضربني أهلي. . .»

ماهر ينام نوما هادئا في الليل، لكنه كثيرا ما يحلم بكوابيس يرويها عفوا: «مرة حلمت اني كنت جالسا وحيدا وأن لصوصا جاؤوا يأخذوني. كانوا على وشك ان يقتلوني، ولكني أفلحت في النجاة. . . مرة اخرى كنت ألعب ومرت دورية اسرائيلية فضربوني، وأخذوني الى السجن.»

وعندما طلبت منه ان يحكي لي احد مخاوفه منذ بداية الانتفاضة، قال: «مرة كنت في المظاهرة، وألقى الجنود بالغاز. وهذا ما أخافني جدا. نجوت بنفسي، لكن الدورية لحقت بي. صفعوني على وجهي ثم تركوني لشأني.»

أمنياته الثلاث على ساحرته: «حوض سباحة كبير، كبير بكبر البحر الميت، لكن غير عميق؛ ان تكون لدي ألعاب كثيرة؛ ان أكون فدائيا وأن تكون لدي كل أسلحة الدنيا وأن تتحرر فلسطين!»

رسمه متهافت، لكن الحكاية التي يحكيها عن الرسم بالغة التركيز:

«انه منزل شخص استشهد؛ رفع علما وزرع زهورا. الاسرائيليون أخذوا المنزل ووضعوا الطفل في الأرض مع النمل والديدان. قتلوا أخاه الصغير وكذلك أهله. وهكذا، فان ابن عمه اصبح مجنونا فقتل الجنود الاسرائيليين والجيش قتل ابن العم بعد ذلك واحتل كل أراضيه... لكنهم لم يروا العلم الفلسطيني على البيت، وبقي!»

وسام عمرها إثنا عشر عاما. ترتاد هي الأخرى مدرسة خاصة. وتعتقد «انهم هذه السنة سهلوا لنا الامتحانات بسبب الوضع.» وهي البكر بين اخوتها الخمسة.

تتمنى ان تصبح طبيبة «لأني أُسَرّ حين اذهب الى عيادة الطبيب، كما ان لديّ عما طبيبا في لندن. فأستطيع ان ادرس هناك وبعدها اعود الى هنا.» نشاطاتها المفضلة في أوقات فراغها، هي الخياطة والتخريم.

تشعر وسام بالسعادة حين تنجح في المدرسة او «حين يحين عيد ميلادي مثلا.» وهي تشعر بالحزن «إذا مرض احد من أسرتي، اوعندما يقتاد الجيش أحدا من عائلتي.»

وأَشَقُّ الأمور عليها «عندما جرت اعتقالات الفتيات واقتادوهن.» ووسام تنكر الخوف. تصاب بالأرق أحيانا، لكنها تستخدم الأرق لـ «الدرس». كوابيسها ترتبط بالانتفاضة: «أحلم مثلا ان الجيش الاسرائيلي داهم البيت فأخاف خوفا شديدا.»

أمنياتها الثلاث على ساحرتها هي: «ان يخرج اليهود من بلادنا؛ ان تتحرر بلادنا؛ ان تكون حياتنا سعيدة.» لكن وسام لم ترغب في ان ترسم.

مايسه لها اربع أخوات وأخ، ووجدت ان البرنامج المدرسي كان مكثفا جدا، وثمّنت المعونة التي تلقتها في إبان تنظيم الدراسة في البيوت.

هي أيضا تتمنى ان تصبح طبيبة «لتساعد الناس وتعتني بهم»؛ تريد ان تعيش «في فلسطين في رام الله». وفيما عنى أوقات فراغها، فانها تحب «القراءة،

والرسم، والكتابة، والتحدث مع الفتيات الأخريات.» وتصف نفسها بأنها مرحة وفرحة أبدا. في الحي يطلقون عليها لقب «ابو السعيد». وإذا حدث لها ان تحزن فبسبب «نزاع مع صديقة، او إذا انتهرني أحد.»

مايسه تخاف «الجيش وثعابينه». وتروي ان نومها غير منتظم في الليل، وأنها تحلم كثيرا: «مرة حلمت اني كنت ذهبت الى المدرسة، وحين رجعت وجدت البيت خاويا. كان هناك أُناسٌ متشحون بالسواد الكامل في حين ان أهلي نجوا بأنفسهم... او أحلم بأننا بنينا بيتا كبيرا وأن الأسرة كلها مجتمعة، وأن الاسرائيليين رحلوا... حين ارى اليهود أحلم بذلك!»

أكثر يوم خافت فيه: «عندما ألقى الشباب كوكتيل مولوتوف على دورية عند ملتقى الطرق هناك؛ خفت على أهل الحارة كلهم: فقد دخلوا يفتشون في الكثير من المنازل، وأهلي لم يكونوا هناك!»

أما أمنياتها الثلاث على ساحرتها، «فلا تستطيع الساحرة تحقيقها لأن الأمنية هي ان تعيد الينا فلسطين!»

وأما رسمها، فيتغاضى عن هذه المخاوف وعن القلق تغاضيا قاطعا: «منزل له حديقة. وثمة فتاة تسكنه. وهي تتنزه. وهي راضية مسرورة. وهذا كل شيء.»

خطاب سيرين (احد عشر عاما ونصف العام) يسترجع تقريبا الموضوعات ذاتها. فسيرين تريد ان تصبح مهندسة «لرسم تصاميم للامارات.»

وسيرين تتحدث كثيرا عن تعلقها بغزة: «احب ان أذهب وأسكن في غزة؛ فأهلي يتحدرون منها، وشقيقتي ولدت في غزة. وإنما استقر أهلي هنا منذ ١٢ سنة. وبقية العائلة لا تزال هناك. غزة جميلة جدا!»

أَشَقُّ ذكرياتها وأصعبها تعود هي الأخرى الى اليوم الذي داهم الجيش فيه بيوت الحارة بعد إلقاء كوكتيل مولوتوف. وليس لها سوى امنية واحدة تطلبها من الساحرة: «ان تحرر فلسطين».

رسمها يمثل «تظاهرة ليوم الشهداء» (أنظر رسم سيرين). «هذا الطفل يريد ان يقذف حجرا، فلفَّ رأسه بحطة، والطفل الآخر هناك يريد ان يلقي كوكتيل مولوتوف. النساء يرتدين الثوب التقليدي، والاسرائيليون في المواجهة لديهم شيء كالدبابة.» (ونلاحظ الأطفال الذين يرسمون شارة النصر في وجه الجنود الاسرائيليين).

فادي عمره اثنا عشر عاما، ويرتاد مدرسة الأونروا؛ وجد العام الدراسي مثيرا للعناء: «لم نعد نعرف شيئا بسبب الجيش... فكثيرا ما كانوا يرابطون على باب المدرسة، ويهددون باغلاقها؛ وكان المدير يضغط علينا لكي لا نثير المشاكل... ومرة أطلقوا النار على المدرسة...»

فادي يريد ان يصبح «فنانا او جنديا للدفاع عن البلاد، او اي شيء مفيد للوطن!» وحين أسأله اين يحب ان يستقر في المستقبل، يجيب: «ايّ سؤال هذا. في وطني بالطبع! كل إنسان يحب ان يقيم في وطنه. ومشكلة الفلسطينيين هي هذه. انهم يسافرون ثم لا يعودون فتخسر البلاد قواها... او ان الاسرائيليين ينفون الناس!»

ويشعر فادي بالسعادة «عندما أكون مع أصحاب، عندما يكون هناك عيد ميلاد، عندما يقف الفلسطينيون جميعا جنبا الى جنب في وجه الجيش الاسرائيلي بدون وجل، عندما يسيرون الى مواجهتهم كما لو ان شيئا لم يكن!» ويكون حزينا «حين يستدعي الجيش واحدا منهم، وعندما ينزل المستوطنون الى قلب البيرة.»

وهو يحكي أشقَّ ذكرياته عليه منذ بداية الانتفاضة بالطريقة التالية: «نحن لا نخاف الجيش الاسرائيلي! والواقع هو ان الخوف يكون رغما عنا! فهم عندهم الأسلحة، ونحن لا ندري ماذا نفعل! مرة كنت أمشي بمحاذاة الجدار. كنت اود ان اقتاد اخي فراح الجندي يضربني ببندقيته وأنا لا أقول شيئا. ومرة اخرى أوشكوا ان يمسكوا بي لكني فررت. نفر رغما عنا، بدون ان نفكر!... عندما كنت اصغر من الآن هاجم الصبيان الجيش بالحجارة،

ومر الجنود بالقرب مني فركضت امي نحوي لتعيدني الى المنزل!»

ويقول فادي انه ينام نوما هانئا ولا يحلم بكوابيس. أما أمنياته الثلاث على الساحرة فهي: «تحرير فلسطين؛ ان يصبح الفلسطينيون أقوياء ومتحدين؛ وأما امنيته الأخيرة فهي ان يستعيد الفلسطينيون أراضيهم.» رسم رسمين: العلم الفلسطيني والحطة («والعلم الاسرائيلي أحرق») من جهة، ومشهدا ريفيا لأعمال زراعية من جهة اخرى (أنظر رسم فادي).

راوند هي الابنة الثالثة لأسرة لها اربعة أولاد. تريد ان تصبح طبيبة «لإفادة البلاد». وتريد ان تتمم دراستها في عمان. أما قوام أوقات فراغها فهو «مساعدة والدتي، والدرس، ومشاهدة الرسوم المتحركة على التلفزيون واللعب مع صويحباتي.»

أَشَقُّ تجاربها منذ بدء الانتفاضة، هي التالية: «ذاتَ ليلة طرق الجنود الاسرائيليون باب بيتنا، وأجبرونا على الخروج الى الشارع لإطفاء العجلات المشتعلة! وطرحوا الكثير من الأسئلة على اخي بحيث انني اعتقدت انهم سيقتادونه... ومرة اخرى داهمونا وأجبرونا على إعادةُ طلاء الحائط لمحو الشعارات المكتوبة عليه.»

وراوند يعتريها الخوف كثيرا في الليل؛ فإذا سمعت وقع أقدام مرور دورية، لا تعود تستطيع الإغفاء.

وأمنياتها الثلاث على ساحرتها هي: «تحرير فلسطين؛ حمل الخير الى الناس؛ ان ينسحب الاسرائيليون من بلادنا.» وتتردد إزاء موضوعة الرسم: «تظاهرة... كلا. زواج... كلا. قطف الزيتون!» (أنظر رسم راوند).

ما يدهش ويلفت النظر، عندما نناقش مع هؤلاء الأطفال (الذين ينبغي لنا ان نكرر مرة اخرى انهم يعيشون في ظل أوضاع أكثر مؤاتاة كثيرا من أوضاع نظرائهم في غزة ونابلس والخليل ومخيمات اللاجئين عامة)، هو وعيهم السياسي وضلوعهم في الانتفاضة: انهم لمّا يصبحوا مراهقين، ولا حتى بلغوا مرحلة ما قبل المراهقة، لكنهم يتموضعون داخل النزاع. فهم يفهمون

جذوره، ويدركون ديناميته، ويتماهون معه بحيث انه حتى أكثر الأسئلة انفتاحا تعيدهم الى الواقع السياسي؛ والأمنيات الثلاث التي يود معظمهم التقدم بها الى الساحرة لا تتعلق برغائب شخصية في امتلاك أرزاق استهلاكية، ولا بآمال بتغيير حياتهم العلائقية بأندادهم او بأفراد اسرهم (كما هي الحال على وجه العموم مع الأطفال الذين اعتدت ان أطرح عليهم هذا السؤال في الدوائر والمرافق النفسانية ــ التربوية الباريسية التي أعمل فيها)، وإنما تتعلق بمستقبل فلسطين والشعب الفلسطيني بعامة.

وهم يصفون حياة يومية تتعرض لغزو الجنود الاسرائيليين؛ فهؤلاء حاضرون في كل مكان، في مدارسهم (بحيث وجدت سامر مصدوما عندما قال لي: «الجيش نام في مدرستنا»)، وفي منازلهم حيث بات الأطفال يشعرون بأن الجيش يمكن ان يداهم المنزل في اية لحظة، وفي أحلامهم (او بالأحرى في كوابيسهم: «عندما ارى اليهود أحلم بهم» كما تقول مايسه). ومع هذا، فان أيا منهم لا يعرب عن حقد او عن عدوانية جامحة فالتة العقال، بل عن مجرد ضرورة مواصلة المعركة.

وأكثر المخاوف التي يشيرون اليها هي الخوف من الثعابين واللصوص وتدخل الجنود. «يمر الطفل في إبان مراحل نموه وتطوره المختلفة بمروحة واسعة من المخاوف الشائعة... فليس ثمة طفل لم يظهر، مثلا، بعض العناء لدى انفصاله عن امه، او خشية الحيوانات، او القلق في الظلمة. ولذا فان في وسعنا اللجوء، وإن بكثير من التحوط، الى فكرة نمو معياري طبيعي، وفي جميع الأحوال، عادي او اعتيادي، للمخاوف الطفلية. وترتبط المخاوف من وجهة نظر الشكل الذي تتخذه، على الخصوص، بأفكار وأحداث ملموسة تعود الى الأعوام الأولى من الطفولة، ثم بصور ذات طبيعة رمزية هي تمثيل لموضوعي الانفصال والتدمير، ثم بإمكانات تتصل بالعلائق ما بين الشخصية والحياة الاجتماعية.»[٧]

---

(٧) Zlotowicz, *op. cit.*, p. 160.

أتُرى الأطفال الذين تحدثنا اليهم خافوا من «المعيار المعتاد» أم بأقل منه. ان السؤال سيظل بلا جواب، وخصوصا ان فكرة «القاعدة والمعيار الطبيعي والمعتاد» قد فقدت كل معنى لها؛ هذا إذا كانت قد حازت اي معنى أصلا: فالواقع هو ان الخوف ليس ملازما هنا لنمو الطفل وللنزاعات النفسية الداخلية وما بين النفسية فحسب، بل انه الى ذلك ردة الفعل على وسط تخشي الجانب يضع موضع التساؤل، وبصورة يومية، السلامة الجسدية لوجوه الأهل وكذلك لدوام العلاقة بهم، تلك العلاقة التي تحمل معها الأمان.

ان التهديد الرازح على السلامة الجسدية يعرب عن نفسه هنا، بالإحالة الى الخوف من الثعابين؛ إذ فضلا عن واقعة وجود الثعابين بكثرة بين الحجارة وفي حرارة الجنائن في الضفة الغربية، إلا أنها تشكل جزءا من السجل العادي لمخاوف الأطفال: «والحيوانات التي هي أكثر تنفيرا ليست الأكثر خطورة ولا الأكثر لا جدوى، بل الأكثر قدرة على التسلل من دون علم منا في اضيق المواضع من جسدنا: الحشرات الطفيلية والثعابين.»(٨) ومن المهم ان نسجل ان الأطفال يتحدثون قليلا، نسبيا، عن مختلف فئات المخاطر الفيزيقية (الجسدية) التي يمكن ان يتعرضوا لها: فممدوح يصف رعبه من فكرة تعريض بقائه للخطر، وماهر يتحدث عن خوفه من الغاز، وفادي يخاف ان يضربه الجنود مجددا، بينما يشير عدة أطفال الى خوفهم من «هجوم» المستوطنين الاسرائيليين على حارتهم في حملة عقابية. وأما الأمهات، فانهن قلقات وبصورة ادق وأوضح في هذا المجال: فهن يترجمن مباشرة الى كلام، الخوف من ان يجرح أطفالهن بضربات الجنود أو برصاصهم، وأن تكون للغاز الذي يستخدمه الجيش نتائج مؤذية على صحة الأطفال، او ان ينجرح الأطفال نتيجة التلاعب بأشياء مفخخة يتركها الجنود عمدا، او ان يحقنهم الجنود بمادة لم تحدد هويتها، كما يُحكى في مختلف مخيمات اللاجئين. ويقع قلق الأطفال على صعيد آخر بخاصة: فالجندي، شأنه في ذلك شأن «اللص» الذي تتحدث سيرين عنه،

(٨) Henri Wallon, *l'Enfant turbulent*, Paris, Alcan, 1925, p. 273.

هو ذلك الشخص الذي في إمكانه كل لحظة ان ينتزع أهل الأطفال (او أطفال الأهل). ان المخاوف تتعلق باستباق الانفصال الممكن (فالأسوأ بالنسبة الى وسام وقع «عندما اختطفوا الفتيات في التظاهرات»). ونستطيع ان نفترض ان ما يزيد في حدة هذه المخاوف هو ان الأطفال يعرفون سلفا، بالتجربة المباشرة او غير المباشرة، ان أهليهم بعيدون عن امتلاك القدرة التامة الكاملة التي يعزوها الأطفال عفوا في الأوضاع العادية الى أهليهم: فأية حماية يمكن ان يؤمل الطفل بالحصول عليها من ذويه بعد ان يصير شاهدا على إذلال الجنود لهم؟ والواقع هو انه ليس من النادر ان يضرب الجنود الأطفال بحضور أهليهم، او حتى ان يضربوا الأهلين بحضور أطفالهم، كما رأينا في رواية رب اسرة مخيم الأمعري، او حتى ان يجبروا الأطفال على ان يبصقوا في وجه أهليهم.

وأما فيما عنى رسوم الأطفال، فاننا نلاحظ أنها تتناول أساسا موضوعتين: رمزية الانتفاضة (العلم الفلسطيني، «الحطة»، تظاهرة النساء والأطفال، قذف الصبية للحجارة، العجلات المشتعلة، دوريات الجيش)؛ والتعلق بالأرض عبر تمثل الطبيعة، وخصوصا الأعمال الموسمية في الحقول[9] (قطاف الزيتون بالنسبة الى أطفال البيرة).

وكذلك، وعلى النحو ذاته، فاننا نجد في رسوم الأطفال الفلسطينيين التي جمعتها منى السعودي[10] في مخيم البقعة في الأردن بين أيلول/سبتمبر ١٩٦٨ وحزيران/يونيو ١٩٦٩، التعبير عن الأحداث المُعاشة والمولدة للجرح (تهجير سنة ١٩٦٧، والقصف الاسرائيلي لمخيمات الأردن) من جهة، وتمثيل قرية الأصل في فلسطين من جهة اخرى مع تأكيد ثراء الزراعات وغناها،

---

(٩) وجدنا الموضوعتين نفسيهما في الرسوم التي رسمتها بنات بيت الأطفال التابع لجمعية إنعاش الأسرة.

(١٠) منى السعودي، «شهادة الأطفال في زمن الحرب: رسوم أطفال الفلسطينيين» (بيروت: منشورات مواقف، ١٩٧٠).

وخصوصا عبر موضوعة قطف التفاح والبرتقال. ويتفسر ثبات ظهور هذه الموضوعة ودوامه بواقعة كون المشاهد الريفية هذه تشكل (او شكّلت) جزءا من الحياة اليومية للأطفال وأهليهم.

لقاءات مع المراهقين

والمراهقون؟ ما هو تأثير الانتفاضة في حياتهم اليومية، وفي مشاريعهم، وفي قيمهم؟ لم نجر مع هؤلاء مقابلات فردية مثلما فعلنا مع الأحدث سنا، لكننا حاولنا ان نفهمهم فهما أفضل قليلا عبر «ملاحظة تشاركية» في الحي، وعبر المناقشات مع ذويهم ومعلميهم، وأخيرا عبر محاولة اوفر نمطية بقليل؛ وذلك بأن واجهنا عددا منهم بأسئلة جماعية.

أولا: مراقبة تشاركية

المراهقون وأهلوهم ومعلموهم

للمراهقين الذين لا يزالون يرتادون المدرسة وتيرة حياة تشبه وتيرة حياة الأطفال الأحدث سنا: الذهاب الى المدرسة في الصباح (عندما تكون المدرسة مفتوحة)، العودة وسط التوتر في الظهيرة، الغداء مع الأسرة، العمل المدرسي الفردي، ثم وقت الفراغ. . . أما الفتيات، فان أمهاتهن يطلبن منهن المشاركة في الأعمال المنزلية، والاهتمام بإخوتهن وأخواتهن الصغار. وعندما تبدأ حرارة الشمس بالتراجع تكون الفتيات لا يزلن يواصلن القيام بواجباتهن المنزلية. وأما الصبية فانهم يخرجون الى الشارع. اذ ان لإطار أوقات الفراغ محيطا ضيقا: انه بضعةٌ من شارع الحارة. وتقوم دوريات الجيش بتوقيف مجموعات الشبان للتدقيق في الهويات، بصورة تلقائية منتظمة؛ ولهذا فان الصبية يترددون بعض التردد في التنقل من دون هدف محدد الى أحياء اخرى تلافيا منهم لهذه الازعاجات، ثم وخصوصا اتباعا لتعليمات ذويهم الذين يعيشون أبدا تحت هاجس ما يمكن ان يحدث لأطفالهم.

ونشاط المراهقين المفضل كرة القدم: وتدور المباريات على ملاعب كرة

القدم في المدارس، او على أراضٍ بور حوّلها هؤلاء الى ملاعب كرة قدم. وغالبا ما يلحق شباب الحي بالمراهقين فتجري مباريات مرتجلة بين الحارات المتجاورة. وأما الصبية الأحدث سنا فانهم يأتون متفرجين. وعندما يملّون يركبون دراجاتهم او يلعبون بالكرة في وسط الشارع. وحين تخرج الفتيات، بدورهن، فانهن يتنزهن مجموعات مجموعات على طول الطريق التي تحاذي ملعب كرة القدم، ويتحدثن فيما بينهن متطلعات بطرف اعينهن الى مجريات العمليات. المشهد هادىء هانىء بحيث ان القوم ينسون للحظة انهم مستنفرو الانتباه... وأن الأمور يمكن ان تنزلق سريعا جدا الى منزلق خطر: اذ تدخل دورية عسكرية الحارة ويتكهرب الجو. المشهد يتواصل، والممثلون يواصلون ما انطلقوا فيه، لكن اللعب يدور على فراغ... التظاهر بأكثر المظاهر طبيعية في العالم والاستعداد في الحين ذاته لكل الامكانات! بل ان التوتر يبلغ ذروته إذا ما قررت الدورية التوقف: فتقف سيارات الجيب جامدة على طول الملعب، والجنود المتمنطقون بأسلحتهم التي تثقل عليهم يحدقون في اللاعبين؛ فأما المراهقون فانهم يتعمدون التركيز على الكرة. لكن المراودة قوية لكل من الطرفين... لفعل ماذا؟ للفرار ــ بالنسبة الى اللاعبين ــ بحيث يتلافون تحمل هذا التحديق، او الامساك مخاتلة بحجر وتصويبه نحو المرمى «المستجد»، او قذف الكرة نحو سيارات الجيب ورؤية ما يكون...؟ او التذرع بالاستفزاز ــ بالنسبة الى أفراد الدورية ــ للنزول من سيارات الجيب والتدخل، او النظر برغبة عارمة الى مباراة كرة قدم حامية؟ الرتل يرحل ببطء، فيتباطأ اللعب لحظة، وتتراخى الأعصاب؛ إذ لم يحدث شيء!

الصبية والفتيات لا يتحادثون إلا قليلا. مجموعاتهم تتلاقى، لكنهم جميعا يتلافون الأحاديث الفردية. فالأهلون صارمون فيما عنى العلائق بين الجنسين. وفي المساء، بعد العشاء، يخرج المراهقون مجددا من منازلهم. فأما الشبان فانهم عند مداخل بعض المنازل يتناقشون في أخبار اليوم وبرنامج الغد. وأما الفتيات فانهن يجلسن على كراسي في باحة منزل إحداهن، يتحدثن او يلعبن بالورق. لكن الفريقين، الشبان والفتيات، يبقيان منفصلين.

بيد ان ثمة تطورا بات ملحوظا. يوم الجمعة يوم إضراب عام. . . ان أحدا لن يذهب الى المدرسة، ولا الى العمل. والوحيدون الذين سيتنقلون هم أولئك الذين لديهم مهمة ملحة ينجزونها. لقد قرر الجيران جميعا الاستفادة من يوم الاضراب هذا لتنظيف الحارة وتعشيب جنينة «اللجنة» وزرعها. والمراهقون يعملون مع رجال الحارة، والأطفال (صبيانا وبناتا) يقطعون بعض الأحيان لعبهم للمشاركة: فيفرغون السلال الملأى بالحجارة او بالأعشاب البرية. بعض المراهقات يقتربن بحياء. فشقيق إحداهن، البكر، يعمل بنشاط. وإحداهن تنتهي الى تناول انبوب الري، وأخرى تنضم الى الفريق الذي يقطف باذنجان «اللجنة الشعبية». ويتم العمل بادئا في صمت كامل ثم تبدأ عقدة الألسنة بعد ذلك بالانحلال. اذ من ذا الذي يستطيع ان يأخذ على فلان عمل ابنته مع شبان، ما دام العمل يدور في جنينة اللجنة الشعبية؟

وفي يوم آخر، قرر سكان الحي (وسكان أحياء اخرى في البيرة ورام الله) الذهاب، شأنهم في هذه الفترة من كل سنة، للمشاركة في احتفالات افتتاح مخيم الناصرة التطوعي الدولي. انه ورشة يشارك فيها الشبان الفلسطينيون، وكذلك متطوعون أجانب وفدوا من بلاد العالم كافة تحت رعاية بلدية المدينة (العربية) للعمل في مشاريع ذات نفع عام (تنظيف الشوارع، بناء مواقف حافلات مظللة، طلي الجدران. . . الخ). وكل سنة، يبدأ اليوم الأول من أيام هذا المخيم الورشة بمسيرة طويلة: فالشخصيات المحلية، والمشاركون في الورشة، وكذلك وفود من الفلسطينيين الوافدين من كلا جانبي حدود ١٩٤٨ (من الضفة الغربية وغزة والجولان والمدن والقرى العربية في اسرائيل) ينتظمون في مسيرة في شوارع الناصرة وينتهون في اجتماع او مهرجان سياسي. ولهذا، فان فلسطينيي الضفة الغربية وغزة كانوا هذه السنة أكثر الوافدين توقعا، وخصوصا ان التظاهرة كانت ستؤكد بصرامة تضامن الفلسطينيين كافة مع أبناء الضفة والقطاع المنتفضين. وعلى هذا، فان مشروع زيارة الناصرة أثار حماسة الراشدين والشبان في الحارة، كما ان هؤلاء الأخيرين بدأوا «يخططون» لرحلتهم، اي يحضرون أهليهم نفسيا لمشاركتهم فيها. وكان الحصول على

اذن الأهل صعبا لسببين: أولا بسبب مخاوفهم إزاء الصورة التي ستجري الرحلة بها (ففلسطينيو الضفة لا يحق لهم تمضية ليلة في الجانب الآخر من الخط الأخضر، مما يعني ان الرحلة يجب ان تتم ذهابا وإيابا في سحابة يوم واحد، كما ان الجنود الاسرائيليين لن يسهّلوا انتقال فلسطينيين من الضفة الغربية بأعداد كبيرة ليشاركوا في تظاهرة وطنية). وأما السبب الثاني، فيتعلق بالفتيات ويتحفظات الأهلين لجهة ما يليق بفتاة مؤدبة ان تفعله. فأما الأسباب المتعلقة بمشكلة الأمن، فانه جرت إزاحتها بسرعة على الأقل في المناقشات «العمومية» بين الجيران. وأما الإذن للفتيات في السفر، فان الحصول عليه كان أكثر صعوبة بكثير: اذ وجد الأهلون أنفسهم موزعين بين نارين: فاحترام التقاليد يتطلب ان تمتنع الفتاة من المشاركة في نشاطات خارج الأسرة وفي وسط مختلط، لكن الوفاء لقيم الانتفاضة والالتزام الوطني يتطلبان الارتفاع فوق هذه التحفظات! وأخيرا، فان بعض الفتيات نجحن في الحصول على موافقة ذويهن على الالتحاق بالفريق بفضل دعم شقيق بكر، او بفضل امرأة متزوجة ملتزمة وتحظى باحترام الجماعة.

يستحق سلوك المراهقين في إبان الرحلة الى الناصرة ان نكرس له بعض الأسطر. فقد جرت الرحلة في حافلة (استأجرها الفريق لهذه المناسبة)، وتمت من دون وقوع حادثة تذكر (اللهم إلا تدخل الجنود الاسرائيليين، وهراواتهم بأيديهم، في محطة القدس للحافلات، من أجل التدقيق في بطاقات هوية شبان مجموعتنا)، خلافا لما جرى لحافلة اخرى انطلقت من البيرة في الحين ذاته الذي انطلقت فيه حافلتنا ومنعها الجنود من مواصلة الطريق. وإذا كانت المجموعة قد اتخذت بعض التدابير الأمنية لدى الانطلاق (التكتم على التجمع في البيرة، وتوزع الفريق وتبعثره في محطة القدس في انتظار نتائج المساعي المبذولة لاستئجار الحافلة) إلا أن التحفظ والاحتراس سقطا في حماسة الرحلة: فالأغاني الوطنية وأناشيد الثورة الفلسطينية دوت على الطريق وعلى كلا جانبي الخط الحدودي لسنة ١٩٤٨، وعبر نوافذ الحافلة المشرعة جميعها وبصوت كان يتعالى كلما اجتازت الحافلة محلة اسرائيلية، او تجاوزت حافلة اسرائيلية.

وعندما مرت حافلتنا على طريق الشمال بمحاذاة السجن الذي وُضع فيه عدد كبير من المساجين السياسيين، بلغ التوتر اشده بين المراهقين والشبان البالغين: كانوا ينشدون الأناشيد التي تمجد السجناء، بينما كانت الأيدي تخرج من نوافذ الحافلة رافعة شارة النصر اولتتقلد هجوما بمسدس وهمي! كان المراهقون والمراهقات يتفجرون معا، ويعلنون هويتهم ومطاليبهم الوطنية.

والمراهقون والفتيات واعون مدركون لكونهم على منعطف فيما عنى تاريخ المرأة الفلسطينية، ويطالبون مطالبة متزايدة بمساواة الجنسين في الكفاح ضد الاحتلال الاسرائيلي. والجنود الاسرائيليون يعرفون ذلك خير معرفة: ففي تموز/يوليو ١٩٨٨، كان هناك نحو تسعين امرأة فلسطينية في السجن موزعات بين سجون نفي تيرزا وأبوكبير في اسرائيل، ومراكز اعتقال المسكوبية في القدس، والجلمة في حيفا، وباب الواطي في غزة. وفي الوقت نفسه، كان هناك فتاتان في الخامسة عشرة من عمرهما في الاعتقال: كفاية أغبر من نابلس المتهمة بقذف حجارة ومعتقلة منذ شهرين، وأميرة دبوس من جنين جرى توقيفها في ٣٠ حزيران/يونيو «لحيازتها علما فلسطينيا في المنزل.»

لم يعد الأمر الآن امر السهر على شرف الفتاة او المرأة كما في الماضي، وإنما السهر على شرف الفتاة او المرأة الفلسطينية، الأمر الذي يفضي الى إيجاد حلول وسط او تسويات مع العوائد القديمة.

ثم ان على الشبان الى ذلك ان يهزوا، ولو بمقدار ادنى، أغلال التقاليد في ميدان العلاقة بين الأهل وأبنائهم. فمبادراتهم في سياق الانتفاضة تتعايش تعايشا عسيرا مع الموقف الذي تردهم السلطة الأبوية العاتية اليه، والذي يفضي الى إدامة طفوليتهم. والاغضاء عن، او القبول بالخروج على القاعدة باسم الوطنية (المشاركة في تظاهرة او في اجتماع سري لتنظيم حركة لدى الخروج من الثانوية... إلخ) يهز جبروت الأهل ببطء، لكن بعمق أيضا.

كيف يرد الأهل على نشاطية أبنائهم المراهقين؟ إذا كانوا استطاعوا اعتبار أول حجارة مقذوفة تصرفات معزولة «لأبناء الشوارع»، إلا انهم باتوا يفهمون الآن ان قذف الحجارة هو أكثر طرائق الجيل الجديد عفوية في الاعراب عن

رفض الاحتلال. وعندما تتمكن الامهات من التعبير عن مشاعرهن إزاء هذا الموضوع، فانهن يصفن تمزقا أليما: فهناك من جهة أولى ضرورة حماية أبنائهن المراهقين بأي ثمن، وهناك من الجهة الأخرى فخر وتشجيع غير مباشر لالتزامهم ونضاليتهم. وهن يشرحن أحسن الشرح كيف ان سياسة القمع التي يمارسها الجيش الاسرائيلي تجعلهن يتخلين عن تحفظاتهن إزاء مطاليب أبنائهن المراهقين بالاستقلال الذاتي: فهن مقتنعات بأن أبناءهن الشبان ليسوا بمنأى حيثما كانوا عن تجاوزات الجنود الاسرائيليين؛ ويسقن للتدليل على ذلك عددا من الأمثلة عن جنود اسرائيليين يقتحمون البيوت للتفتيش، ضاربين الرجال والشبان، اوليطلبوا من السكان جمع الحجارة التي وضعها أشخاص آخرون على الطريق، اولتلطيخ الجدار المغطى بشعارات وطنية... إلخ.

والشهادة الأوضح في هذا الشأن، هي ولا ريب شهادة رب اسرة من مخيم الأمعري التقيته في رام الله: فهو يسكن مع زوجته وأبنائه الثلاثة وابنته. وهو يقول ان ابنه الثاني لا يزال يشغل عليه باله منذ بداية الانتفاضة لأنه كان ولا يزال مستعدا أبدا للمشاركة في التظاهر، ولا يفوت فرصة لقذف حجر على دورية اسرائيلية. أما ابنه البكر فهو على العكس من ذلك، شاب «عاقل» في التاسعة عشرة من عمره، ويتلافى اية وضعية مواجهة. لكن الجنود الاسرائيليين ضربوا هذا الابن البكر ثلاث مرات في سياق العقوبات الجماعية التي تمارس في المخيم... «وأعتقد انه في صدد ان يصبح حركيا نشيطا»، كما قال الأب. وإذا كان الابن الثاني لم يتعرض شخصيا لشيء حتى الآن، إلا ان محدّثي وزوجته ضُربا هما كذلك على مرأى من أبنائهما.

وتعرب الأمهات كذلك عن قلقهن إزاء أبنائهن المراهقين ومستقبلهم. فهذا العام الدراسي ضاع، كما ان العام المقبل سيضيع وفقا لأرجح الامكانات.. فأي إعداد سيتلقاه هؤلاء الشبان؟ الجامعات مقفلة، وهي لا توشك ان تفتح أبوابها في القريب. والطلاب الذين حصلوا على الشهادة الثانوية ويريدون مواصلة الدراسة الجامعية ينتظرون.. وأولئك الذين يريدون البدء بتجربة مهنية ينتظرون.. ان يصبح الوضع أكثر مؤاتاة! وهنا أيضا نجد

تفكير الأمهات معقدا، اي غير بسيط: فهن يمتلكن، وفي الحين ذاته، الشعور بأن هذا الجيل سوف يذهب ضحية على مذبح الكفاح من أجل التحرر، لكنهن لا يجدن مصير هذا الجيل فريدا في نوعه لأنهن يعتبرن ان كل جيل عاش منذ سنة ١٩٤٨ في الاستلاب. وهن يجهدن في تشجيعهم على القراءة والدرس، من دون اعتقاد حقيقي من جانبهن بإمكان ذلك: الدراسة! وماذا بعد ذلك؟ فمراهقو الأُسر الثرية يُرسلون الى الخارج لمتابعة الدراسات العليا، أما الآخرون فيعيشون على وتيرة الانتفاضة.

وبطبيعة الحال، فان هذا السياق ينيخ بوزن ثقيل جدا على العلاقة بين المراهق والدراسة، وعلى الصلة بينه وبين أساتذته. والأساتذة، شأن المعلمين، يسجلون وجود تغيرات على مستوى سلوك تلامذتهم. وقد أُتيحت لنا فرصة النقاش مع أساتذة مدرسة خاصة في رام الله وأساتذة مدرستي الأونروا، وذلك في إبان تمرير الأسئلة الجماعية التي سيرد ذكرها بعد قليل. وهم يتفقون جميعا على الحديث عن صعوبات التركيز، وعدم الاستقرار، وإفراط النشاطية، وتزايد ذلك كله لدى طلابهم وائتلافه مع نزعة الى «الاحتجاج» الذي يعيشه المعلمون الى هذا الحد اوذاك. ويكفي للتدليل على هذه النقطة الأخيرة وتوضيحها ان نصف أحداث هذا الصباح، الثلاثاء (وهو صباح عادي جدا)، الذي أمضيناه في مدرسة رام الله.

فالى حين لحظة الفرصة، كان الوضع يبدو شأنه في مدارس الدنيا كافة: حركة ذهاب وإياب يقوم الأساتذة بها لتوفير دروسهم. انه جو تحصيل، وخصوصا ان الأمر يتعلق بإجراء امتحانات آخر العام الدراسي عشية إقفال المدارس هذه. وفي الفرصة، جاء وفد من الصفوف العليا لمقابلة المدير وإبلاغه قرار الطلاب بتنظيم اعتصام صامت في باحة المدرسة، احتجاجا على إقفال المدارس. ودعا الطلاب الأساتذة الى الانضمام اليهم في هذه التظاهرة الصامتة. فحاول الأساتذة، لكن من دون جدوى، ثني الطلاب عن قرارهم مذكرينهم بأنه قد يكون من الأولى استخدام ساعات الدراسة الأخيرة لمهمات أكثر أكاديمية. وحين خلوا ببعضهم أعربوا عن طفحان كيلهم إزاء هذا

المشروع: فيوم الاثنين السابق دعت القيادة الموحدة للانتفاضة الطلاب الى القيام بمثل هذه التظاهرات الصامتة في المدارس وفي مواقيت محددة. فأيد الأساتذة، بطبيعة الحال، هذا القرار. أما هذه المرة فان مبادرة الطلاب هي التي وضعت الراشدين أمام الأمر الواقع، طالبة اليهم ــ فضلا عن ذلك ــ المشاركة معهم. وقد حدث الاعتصام، وكنا نحن أيضا ــ الراشدون ــ حاضرين. بعد ذلك صعد الطلاب الى مباني المدرسة منشدين بصوت يصم الآذان أناشيد ثورية، في حين راح الأساتذة يلاحظون ببعض الضيق «انهم ينزلوننا ويصعدوننا كما يشاؤون!» ثم ان الحادث أوشك ألا يظل عند هذه الحدود: ذلك بأن المراهقين، بادئا، لم يكونوا يشاؤون العودة الى الصفوف وإنما الخروج ومواصلة التظاهرة في الشارع. لكن المدير والأساتذة حاولوا جاهدين إعادة الجميع الى الجادة بعسر شديد: لماذا حَمْلُ الجنود الاسرائيليين ودفعهم الى التدخل حول المدرسة في يوم إقفال نهائي؟

في المدرسة أيضا، هناك بداية تغيرات. إذ في حين ان النظام التربوي التقليدي مبني على طاعة الأستاذ العمياء، والخضوع للراشد الذي ينفرد بمعرفة خير التلميذ، فان روح الاحتجاج بدأت تصل سائرة على أخمص قدميها الى المدرسة والأسرة والمجتمع في مجمله. بذرة التغيير قائمة في التناقض بين «القبعتين» اللتين يعتمرهما المراهق: فهو «ذات» و «فاعل» في دينامية الانتفاضة، ولم يعد في وسعه ان يكون «موضوعا» إزاء الرموز التقليدية للسلطة.

وما سمّيناه «ملاحظة تشاركية» أتاح لنا ان نرصد من الخارج بعض وجوه واقع المراهقين المُعاش. وهذه الملاحظات جزئية بكل تأكيد. لقد أُجريت على مراهقين موسرين نسبيا لأنهم لا يعيشون في المخيمات. انها ضرب من وصف «يوم عادي» لشبان الضفة الغربية، بعيدا عن المأساة التي سوف تتحدث وسائل الاعلام عنها، وبعيدا عن الحالات الباهرة... غير ان البعد المأساوي ليس غائبا عنها.

ثانيا: الاستمارات الجماعية

أ ـ الصعوبات المنهجية

أردنا، في محاولتنا رصد الكيفية التي يدرك المراهقون بها أنفسهم ومشاريعهم وتطلعاتهم وقيمهم، من الداخل هذه المرة، ان نعطيهم الكلمة مباشرة عبر استمارة أسئلة. كان اختيار الأسئلة مسألة دقيقة لأكثر من سبب: يجب ان نعزو الصعوبة، بصورة خاصة، الى خصوصية المراهق التي تجعل الباحث النفساني مترددا أبدا بين «استمارة الأسئلة التي تبعده عن موضوع بحثه والمقابلة التي تغضبه»[1]، والى خصوصية الوضع. والواقع انه لم يكن من المعقول، ولا المتصور طرح أسئلة مباشرة على المراهقين تتعلق بعيشهم للانتفاضة، لأن مثل هذه الأسئلة كان سيبدو لهم في السياق الحرج للقمع مشبوها من جهة، ولأنهم من جهة أخرى كانوا سيعطوننا الأجوبة التي كانوا يعتبرونها الأجوبة الفضلى لاظهار وجه الانتفاضة العلني الأمثل. ولهذا، فانه بدا لنا ان الاختبارات التالية، التي هي أكثر إسقاطية (أي أكثر انفتاحا)، يمكنها ان تتيح لنا الإحاطة إحاطة أفضل قليلا بموضوع دراستنا.

ب ـ المعالجة الانشائية بشأن الأنا ـ المثالي[2]

صِف الشخص الذي ترغب في التشبه به. من الممكن ان يكون هذا الشخص رجلا او امرأة، حقيقيا او خياليا. ومن الممكن ان يجمع بين عدة صفات وخصائص لاحظتَ وجودها لدى عدة أشخاص.

---

(١) Roland Doron, *la Vie affective de l'adolescent inadapté*, Paris, Dunod, 1970, p. 24.

(٢) Havighurst R. J., Robinson M. Z., Dorr M., «The Development of the Ideal-Self in Childhood and Adolescence,» *Journal of Educational Research*, Vol. XL, No. 4, December 1946; Havighurst R. J., MacDonald D. V., «Development of the Ideal-Self In New Zealand and American Children,» *Journal of Educational Research*, Vol. XLIX, No. 4, December 1955.

أذكر بعض التفاصيل عن هذا الشخص، ما هي مزاياه ومظهره الخارجي، وما هي مهنته وعمله، وكيف يمضي أوقات فراغه؟

إذا تشبهت بشخص حقيقي، أكتب في نهاية رسالتك أنك وصفت شخصا حقيقيا. ليس من الضروري ان تذكر اسم هذا الشخص إن كنت لا ترغب في ذلك.

لماذا اخترنا ان نركز اهتمامنا على فكرة الأنا ــ المثالي هذه، وبتوسط نص من هافيغرست (Havighurst)؟ ان فكرة الأنا ــ المثالي في علم النفس هي مركب يتكون من تماهيات الفرد كافة: التماهي مع وجوه الأهل في فترة أولى، ثم مع وجوه تقع في دوائر متزايدة الابتعاد عن الخلية العائلية الأصلية (الاخوة، الأخوات، الأصدقاء، الأساتذة، أبطال الروايات والأفلام، الشخصيات العامة المشهورة. . .). ونتيجة ذلك هي خلاصة أدوار وتطلعات سوف تشكل، بصورة من الصور، خطا هاديا موصلا طوال تاريخ الفرد. وعلى هذا، فاننا حين طلبنا من أحداث فلسطينيين ان يصفوا أناهم ــ المثالي، فاننا كنا نطلب منهم التحدث عن الأشخاص الذين يثيرون إعجابهم، وعمن يرغبون في ان ينظموا مستقبلهم على غرارهم ــ وصورتهم ــ من أشخاص. أفترى المثال المحتذى سيكون مناضلا ام لا؟ أفتراه «قاذف حجارة» ام مناضلا وطنيا من مناضلي الظل؟ أفتراه يرمز الى النجاح المهني والمالي الذي يتيح الافلات من قسورات حاضر مستلب؟ ما هي موضوعات تماهي الفتيات في هذه المرحلة الانتقالية من حياة المجتمع؟ تلك هي الأسئلة التي سنحاول الاجابة عنها بتحليل محتوى الكتابات التي جمعناها.

وأما فيما عنى اختيار نص هافيغرست، فان الباعث عليه هو واقع استخدامه في العديد من الدراسات،[٣] بما يتيح عقد مقارنات مع

---

(٣) أنظر لائحة تغطي جميع المؤلفين الذين اهتموا بفكرة الأنا ــ المثالي، في:
Gérard Lutte, *le Moi-idéal de l'adolescent*, Bruxelles, Dessart, 1971, pp. 22-23.

المراهقين الأوروبيين الذين قدم جيرار لوته (Gérard Lutte) عينة واسعة منهم. ونستطيع كذلك ان نقابل هذه النتائج بتلك التي حصلنا عليها سنة ١٩٧٥ حين عرضنا هذا النص نفسه على المراهقين الفلسطينيين في مخيم تل الزعتر في لبنان.[٤]

ج ــ «من أنا؟»

استمارة أسئلة هوية مفتوحة، قوامها الطلب من التلامذة الاجابة ثلاث مرات متتالية عن سؤال «من أنا؟» والطريقة التي جرت كتابة الأسئلة بها على الورق الموزع، كانت تترك ثلاثة إمكانات للاجابة، بعبارة واحدة، او جملة من سطرين او ثلاثة. وإنما وزعنا الأسئلة مكانيا في حيز الورقة بهذه الصورة لأملنا بأن نحصل على تعريف للهوية على مستويات عدة: اي من المستوى الأكثر عفوية الى المستوى الأكثر تأملية وأوفى صوغا وسبكا. ومن الممكن، كذلك، ان تتراوح الأجوبة التي سنحصل عليها بين قطبين: التعبير عما يكوّن وحدة الذات؛ والتعبير عن شعور الفرد بالانتهاء الى متحد.

وثمة عدد من المشكلات التي يطرحها تطبيقُ هذه المنهجية، سوف نحاول عرضه فيما يلي:

نبدأ بالصعوبات ذات الطابع العملي.

ــ كان من الصعب تحقيق خطة التنقلات التي وضعناها، من حيث ان دخول مختلف المناطق في الأراضي المحتلة هو رهن بالأحداث اليومية (وهكذا، فان مناطق نابلس والخليل وجنين وطولكرم كانت مضطربة على نحو خاص في إبان تلك الفترة). أما دخول مخيمات اللاجئين، فكان مستحيلا في غالب الأحيان بسبب فرض حظر التجول.

ــ ان الزمن الذي يمكن تكريسه للبحث يتقلص نتيجة توقف جميع

---

(٤) Sylvie Mansour, *op. cit.*

النشاطات في الظهيرة في إطار الانتفاضة، ونتيجة الاعلان الأسبوعي للاضراب العام الذي يستغرق عدة أيام كاملة.

ــ ان التعجيل في إنهاء العام الدراسي جاء يعيق إمكانات اللقاءات الجماعية مع المراهقين، وخصوصا ان رؤساء المؤسسات والأساتذة بدوا متحفظين ــ بحق ــ إزاء القيام بأي نشاط ملحق في إطار الصفوف، يكون من شأنه ان يفتئت على الوقت المخصص للدراسة وللامتحانات النهائية، والذي هو وقت قصير أصلا.

وهناك صعوبات اخرى ترتبط ارتباطا أكثر مباشرة بالوضع السياسي.

ــ كان من المشروع كذلك، ومن المحق ان يحرص رؤساء المؤسسات انفسهم على الحصول على ضمانات فيما عنى الدراسة نفسها (مضمونها، أهدافها، متضمناتها السياسية المحتملة، إمكان استخدام المعطيات...)، وبالنسبة الى أمان طلابهم المشتملين بالبحث (سرية الوثائق).

ــ ان البحث عن الواقع اليومي المُعاش للأطفال والمراهقين الفلسطينيين هو بحث له بالضرورة، في سياق الانتفاضة، تلاوين سياسية. وعلى الرغم من انه تقرر عدم ذكر اي اسم عائلة في الوثائق التي يعيدها المراهقون إلينا، فان الحد الأدنى من المعلومات العامة المقدمة على الأوراق (مكان الاقامة محل الولادة، مهنة الأب...) كان يمكن ان يكون كافيا لتحديد الأفراد المعنيين والتعرف الى هويتهم فيما لو وقعت الوثائق في يد الجيش الاسرائيلي. وعلى هذا، فانه كان على اختيار أمكنة الاستقصاء ان يدخل في الاعتبار عامل الأمن او «مفاعل أمن»: تقدير إمكان المرور بحاجز للجيش (وهذا ما جعلنا نستبعد قطاع غزة بالكامل نظرا الى عدم وجود حل بديل يوفر الأمن للوثائق). ولنسجل، في هذا الصدد، انه إذا كانت الصعوبات التي يمكن ان يصادفها الباحث قد تزايدت في السياق الحالي، غير أنها كانت موجودة أبدا منذ بداية الاحتلال: وابراهيم واد عطا، الذي كان يقوم ببحث اجتماعي يتعلق بـ «الأسرة الفلسطينية في الضفة الغربية» سنة ١٩٨٣، يصف في كتابه المشكلات ذاتها فيما عنى استمارة الأسئلة: «ثمة عدة أسئلة كان يفترض

إدراجها، واستبعدت لأنه كان من شأن متضمناتها ان تعرِّض الدراسة كلها وتتهددها. وكائنا ما كان الأمر، فانه جرت مصادرة استمارة أسئلة مملوءة، من احد المحققين المستقصين... كما جرى استجواب محقق آخر مع سلاح مشهر عليه قبل ان يطرد من احد مخيمات اللاجئين وقبل ان يتمكن من الحصول على ملء استمارات الأسئلة.»(٥) ثم ان الدواعي الأمنية ذاتها كانت تستبعد إخراج الوثائق، التي تم الحصول عليها، عن طريق المطار.

كان من الواضح ــ على مستوى اعم ــ ان على كل باحث يقرر العمل في سياق وضع عسكري سياسي خاص الحساسية، ان يأخذ في الاعتبار ردات الفعل التي يمكن ان يستثيرها اختيار موضوعه ومنهجيته. ففي مثل هذا السياق لا يعود هناك «ميدان محايد»، اي حقل مستقل عن الوضع المتفجر، حقل لا يمكن إدراكه كحيز يسع احد الطرفين المتحاربين استغلاله. فسواء أكان موضوع الدراسة سلوك الأطفال، ام كمية إنتاج البيض في الضفة الغربية، ام الخصائص العلم لسانية لبيانات «القيادة الموحدة للانتفاضة»، فان في وسع ردات الفعل والحذر والحيطة ان تَظْهر، وبحق، ليس إزاء شخص الباحث والموضوع الحقيقي لبحثه فحسب بل أيضا إزاء الاستخدام اللاحق الممكن للمعلومات التي تمكّن من جمعها. ثم ان هذا الحذر الظرفي، يضاف في إطار علم النفس الى حذر آخر، حتى في الدول التي توصف بالمتطورة، يرتبط بهذا الميدان العلمي ذاته. إذ عندما نعلم بأن من الذيوع بمكان ان أخصائيين بالعلوم الانسانية وعلماء نفس خاصة، يعملون في «مكتب الشؤون العربية» حيث تصاغ تفاصيل تطبيق سياسة قمع الانتفاضة، فاننا نفهم ان تثير دراسة تتعلق بعلم نفس الأطفال والمراهقين الفلسطينيين، ردات فعل متحفظة في مرحلة أولى. وكما قال لي صديق فلسطيني وهو يضحك: «لأن الاسرائيليين لا يفقهون شيئا من نفسيتنا، فانهم عجزوا عن تكميم الانتفاضة.»

---

(٥) Ibrahim Wade Ata, *The West Bank Palestinian Family* (London: KPI, 1986), p. VI.

ثالثا: إطار الدراسة وخصائص الأهلين

لدى وصولي الى الضفة الغربية، كانت المدارس لا تزال تعمل ويبدو أنها ستظل كذلك لأسابيع عدة. غير ان السلطات العسكرية قررت فجأة إقفال المدارس في ٢١ تموز/يوليو، متذرعة بالاضطرابات التي تحدث بصورة منتظمة لدى انصراف الطلاب من المدارس في الظهيرة (قذف الحجارة، سد الطرقات بالحجارة او بالعجلات المحترقة)، بحيث أنها لم تترك للمعلمين سوى بضعة أيام لتنظيم تصفية العام الدراسي (تنظيم امتحانات الترقية، كتابة إفادات العلامات، جمع الكتب. . .) في مناخ توتر حاد (تظاهرات متضاعفة الحدة والغزارة). وإذ حصلتُ على موافقة مدير مدرسة خاصة في رام الله، وموافقة مسؤول عن التعليم في مدارس الأونروا، فانني قررت ان احصر تمرير وعرض أسئلتي على صفوف السنة الثالثة الاعدادية في المدارس الثلاث: مدرستين للأونروا واقعتين في مخيمين للاجئين قرب مدينة أريحا، ومدرسة خاصة في مدينة رام الله.

لكن، لماذا التوجه الى طلاب يرتادون السنة الثالثة الاعدادية؟ ذلك لأن طلاب هذه السنة لا يتقدمون لامتحان نهاية السنة من جهة، ولأن الطلاب الذين أسلفت دراستهم في تل الزعتر كانوا، من جهة اخرى، في الصف ذاته.

ويستطيع الطلاب في الضفة الغربية ان يحضروا دراستهم في ثلاثة أنماط مختلفة من المدارس: مدارس الأونروا (للاجئين المسجلين لدى مكاتب الأمم المتحدة)، والمدارس الحكومية، والمدارس الخاصة. وكما هو حالهم في الدول المجاورة (لبنان، سوريا، الأردن. . .) فان الأهلين يفضلون ان يرسلوا أبناءهم، بمجرد ان يتمكنوا من ذلك، الى المؤسسات الخاصة نظرا الى اشتهار التعليم بأنه أفضل نوعية هناك. ونجد على وجه العموم، في هذه المؤسسات، مروحة واسعة من الأسعار والنوعيات. والمدرسة التي تمكنا من بلوغها في رام الله، هي مدرسة تمارس سياسة أقساط معتدلة، الأمر الذي يفضي الى خلط ومزج واسعين للأصول الاجتماعية ــ الثقافية. وهي تعمل منذ سنة ١٩٧٦. وإنما هو أستاذ المعلوماتية الذي شاء ان يقدم لي مساعدته، وعرض

الاختبارات على تلامذته الذين يعملون معه عادة تمارين رياضيات ويتعلمون لديه لغة حاسبات الكترونية وأسس البرمجة وقواعدها. ويصف المدير هذا الصف بأنه «ذو مستوى جيد لا يطرح اية مشكلة من وجهة نظر السلوك، على الرغم من التصاعد العام في المطاليب.» وهذا اليوم، الثاني عشر من تموز/يوليو ١٩٨٨، هو اليوم الدراسي ما قبل الأخير...

مدينة أريحا شديدة القرب من البحر الميت (فهي، إذاً، قريبة من الحدود مع الأردن). ومعنى هذا ان الطقس فيها حار، وأن المناظر المحيطة بها صحراوية! كانت تبدو في هذا اليوم، الثالث عشر من تموز/يوليو ١٩٨٨، مدينة شبح هجرها أهلها. ولحسن الحظ فان في وسط المدينة ساحة، بمتاجرها وبائعيها الجوالين الذين يقدمون الدليل على انه لم تقع اية كارثة تحمل السكان على الفرار. ومع هذا، فان الانطباع بالخواء لا يفارقك، كما انه يستجيب لواقع؛ فأريحا عرفت عصورا ذهبية ولّت، بحيث أنها لم تعد سوى ظلال ذاتها: عصر الأوائل الذهبي الذي لا تزال الآثار وحقول الحفريات تشهد عليه؛ وعصر ما قبل سنة ١٩٦٧ الذهبي حين كانت أريحا تجتذب حافلات السياح الذين يفدون من العالم كافة الى مواقعها الأثرية، وتجتذب الزبائن العرب الذين اعتادوا تمضية الشتاء فيها للافادة من لطافة المناخ. شوارعها تحف في كلا جانبيها بالمقاهي والمطاعم التي نسيت، منذ زمن بعيد، حركة الوافدين المعتادين الذين كانوا يفدون كل سنة ليجدوا، مرة بعد مرة، الجو الخاص المضمخ بعطور نباتات أريحا الفاخرة؛ هذه المؤسسات مهجورة. فحتى الماء الذي كان ينبع في الماضي بقوة من الينابيع المبعثرة في المدينة يبدو انه حرد على الأماكن: فالاسرائيليون حفروا حول المدينة آبارا عميقة جدا بمعدات متطورة، بحيث ان مياه الآبار الموجودة نضبت وجفت.

وهناك ديكور شبحي آخر: انه مخيمات اللاجئين. فقبل سنة ١٩٦٧ كان هناك سبعون ألف لاجىء من لاجئي سنة ١٩٤٨ يعيشون موزعين بين اربعة مخيمات: نعيمه، وعين السلطان، وعقبة جبر، والعوجا. أما سكانها الحاليون فيقدرون بخمسة آلاف؛ وأما الآخرون فانهم رحلوا عبر جسر أللنبي

القريب آملين بأن يجدوا في الأردن ملاذا أكثر أمانا . . . لم نعد نرى الآن مكان المنازل المنخفضة التي كانت تتراصف في الماضي، إلا أماكن مقفرة. بل ان المرء لينسى إمكان وجود شيء آخر قبل ذلك، ان لم تستوقف النظر مبان صلبة لا يزال يرفرف علم الأمم المتحدة عليها ويرتادها آلاف الطلاب الذين يأتونها للدراسة. فأما البيوت الصغيرة المنخفضة، فقد دمرها الجيش الاسرائيلي لدواع أمنية: فهو يريد الحيلولة دون قاذفي الحجارة المحتملين ودون إيجاد مخابىء لهم في الأطلال التي تحف بالطريق الرئيسية. لم يبق إلا ثلاثة مخيمات قليلة الامتداد، ولا تكاد تتميز من المنظر القائم: فهي تتبنى ألوان المكان وتضاريسه، ويكاد يمتزج سكانها بالأرض كما لو كانوا يتمنون النسيان. وإذا كان الجو حول المخيمات متوترا بسبب دوريات الجيش الاسرائيلي التي توقف، بصورة تكاد تكون منتظمة، الأحداث الذين يتنقلون على الطريق الرئيسية (وبعضهم يتنقل على دراجات) للتدقيق في الهويات، إلا ان ليس ثمة براميل إسمنت لسد المداخل، ولا سياج أقفال حديدي؛ فنحن لسنا هنا في المخيمات الأكثر سخونة في الأراضي المحتلة. وقاذفو الحجارة في أريحا لا يحتلون الصفحات الأولى في الصحافة العالمية، شأن إخوانهم في غزة او نابلس. ومع هذا، فان الانتفاضة هنا أيضا تسير وتتقدم.

مدارس الأونروا لم تعد تستقبل هنا والآن سوى سبعماية طالب تقريبا: ولنقص العديد نتيجتان مهمتان: فالأماكن مشغولة على أساس المداولة بين مجموعتين (مجموعة الصباح، ومجموعة بعد الظهر)، وعلى أساس الاختلاط. وإذاً، فاني ذهبت الى مدرستيّ الأونروا الواقعتين في عقبة جبر وعين السلطان، أعرض على تلامذة «السنة الثانية الاعدادية» ان يعربوا عن أناهم ــ المثالي وهويتهم كتابة. وتقع المدرستان على تخوم المخيمين: وعلى الرغم من الحمى التي كانت سائدة في هذا اليوم الدراسي الأخير (امتحانات الترقية النهائية، استرجاع الكتب المدرسية)، فان الطلاب والمعلمين أبدوا الكثير من روح التعاون إزاء هذه المهمة الاضافية!

طلبنا من المعلمين انفسهم ملء استمارات الأسئلة: كان اعتقادنا ان

تدخّلنا المباشر، بسحنتنا الأوروبية وعربيتنا الدارجة الخرقاء أحيانا، يمكن أن يولد شعورا ما بالريبة او ان يستثير تأكيدا لبعض سمات الهوية في مواجهة هذا الآخر، الأجنبي. كان الأستاذ، في كل صف، هو من قدم استمارات الأسئلة على أساس أنها تدخل في إطار دراسة نفسانية عن المراهقين. واكتفى بقراءة نص التحرير والـ«من أنا» بصوت عال، ملحا على واقعة ان المسألة مسألة استقصاء مكتوم، وأن المدير نفسه والأساتذة يجهلون مضمونه، وأنه ليس في اية حال اختبارا مدرسيا يحظى بعلامة وتقدير.

وقبل ان ندخل في تفاصيل تحليل المضمون سنحاول، باديء ذي بدء، ان نصف «عيِّنتنا». إنها تشمل ٤٦ تلميذا في عين السلطان (صفا السنة الثانية الاعدادية)، و ٢٥ تلميذا من عقبة جبر، و ٢٩ في رام الله، موزعين من حيث الجنس كما يلي:

عين السلطان		عقبة جبر		رام الله	
صبيان	بنات	صبيان	بنات	صبيان	بنات
٢٤	٢٢	١٩	٦	١٥	١٤

وتتراوح أعمار المائة مراهق (٥٨ صبيا و٤٢ بنتا) بين ١٣ و١٧ عاما. ومتوسط أعمار تلامذة رام الله ادنى قليلا من متوسط الأعمار في المخيمين (الجدولان رقم ١، ورقم ٢):

الجدول رقم (١)
توزع الأعمار

١٣ عاما	٧ تلامذة
١٤ عاما	٥٤ تلميذا
١٥ عاما	٢١ تلميذا
١٦ عاما	١٤ تلميذا
١٧ عاما	٤ تلامذة

الجدول رقم (٢)

توزع الأعمار تبعا للمدرسة

مـدرسـة :	عين السلطان	عقبة جبر	رام الله
متوسط العمر :	١٤,٦	١٤,٥	١٤,١٤

وفيما يتعلق بوسط المراهقين الاجتماعي ـ الثقافي، فان تحليل مهنة الأب (الجدول رقم ٣) يؤكد طبعا فرضية انتماء التلامذة، الذين يرتادون مدرستي الأونروا في مخيمي اللاجئين، الى وسط اجتماعي ـ ثقافي أقل توفرا وحظوظا من وسط التلامذة الذين يرتادون مدرسة رام الله الخاصة.

الجدول رقم (٣)

توزع مهنة الأب تبعا للمدرسة

مهنة الأب	عين السلطان	عقبة جبر	رام الله
مزارع	٢٦	٣	—
شرطي مستقيل*	٣	—	—
مـلاّك	—	—	١
ملاّك مزارع دواجن	—	—	١
متوفى	٦	٥	٢
بلا عمل	٢	١	—
عامل	٤	١	١
بنّـاء	—	١	١
وسيط	—	١	—
حارس مدرسة	—	١	—
صيـانـة	—	—	١
سائق شاحنة	—	١	١
تـاجـر	١	٢	١٠
مستخدم لدى الأونروا	٤	٣	١

مستخدم	—	٢	—
حافلة ــ مدرسة	—	—	٢
مزيّن (حلّاق)	—	—	١
وكالة سياحة	—	—	١
معلم	—	١	٣
مفتش بالسجل العقاري	—	—	١
مدير مدرسة	—	١	—
صحــافي	—	—	١
أستاذ جامعي	—	—	١
مهنــدس	—	٢	—

* شرطي مستقيل: في وضع الانتفاضة والعصيان المدني استقال العديد من الشرطيين الفلسطينيين من مناصبهم كي لا يكون عليهم المشاركة في القمع الذي تفرضه الحكومة الاسرائيلية.

ولدى تجميع وتأليف مهن الآباء في ست فئات (٣ فئات خاصة، و٣ فئات تتراوح بين «المحرومين» و «أصحاب الامتيازات») نحصل على صورة الوضع الاجتماعي ــ الثقافي للطلاب في العينات الثلاث المعتبرة (الجدول رقم ٤).

الفئات الست

أ ــ مزارع	
ب ــ شرطي مستقيل	
ج ــ ملّاك	
د ــ عامل بناء بلا عمل وسيط حارس مدرسة صيانة سائق شاحنة متوفى	«محرومون»

يتبع

هـ ـ تاجر مستخدم حافلة ـ مدرسة مزيّن وكالة سياحة	«متوسط»
و ـ معلم مفتش بالسجل العقاري مدير مدرسة صحافي أستاذ جامعي مهنـــدس	«أصحاب امتيازات»

الجدول رقم (٤)
توزع الأحداث بالنسبة المئوية
ووفق الوضع الاقتصادي ـ الثقافي والمدرسة

	عين السلطان	عقبة جبر	رام الله
أ ـ مزارع	٥٦,٥ ٪	١٢ ٪	ـ
ب ـ شرطي مستقيل	٦,٥ ٪	ـ	ـ
ج ـ ملاّك	ـ	ـ	٦,٨ ٪
د ـ محروم	٢٦,٨ ٪	٤٤ ٪	٢٠,٦ ٪
هـ ـ متوسط	١٠,٨ ٪	٢٨ ٪	٥١,٧٢ ٪
و ـ صاحب امتيازات	ـ	١٦ ٪	٢٠,٦ ٪

يعيش طلاب عين السلطان وعقبة جبر، في معظمهم، في شروط اجتماعية ـ ثقافية غير مؤاتية (محرومون). لكننا نلاحظ، في الحالة الأولى، ان

هؤلاء المحرومين هم عمال زراعيون بخاصة، وأن الفئات «المتوسطة» وصاحبة الامتيازات هي أكثر حضورا في عقبة جبر منها في عين السلطان.

وإزاء عدم وجود مقابلات فردية لترسم التاريخ الفردي لكل تلميذ وأسرته، فان لدينا بعض المؤشرات التي تتيح لنا ان نعيد تكوين عدد من المسارات المختلفة.

وأول تمييز نستطيع القيام به، وأكثرها فجاجة هو التمييز بين لاجىء وغير لاجىء، على أساس طبيعة المدرسة المرتادة. وبالنظر الى ان ٧١ مراهقا يرتادون مدرستيّ الأونروا، فانه يكون لدينا بالتالي في عيّنتنا ٧١ لاجئا. ويعرّف مكتب الأمم المتحدة «اللاجىء من فلسطين»: «كل شخص كان يقيم عشية نزاع سنة ١٩٤٨ في فلسطين منذ عامين على الأقل، وفقد في إثر النزاع منزله ووسائل وجوده.» ولا بد، كي يستفيد اللاجىء من معونة الأونروا (وأن يتمكن بالتالي من إرسال أبنائه الى مدارسها)، من ان يكون مسجلا لديها ومحتاجا.

ونستطيع، بالاستناد الى مؤشر أصل الأهل الوارد في الاستمارات الموزعة، ان نصقل هذا الفرز الأول. ويفضي تحليل الأجوبة، بادئا، الى تمييز لاجئي الجيل الثاني المراهقين من لاجئي الجيل الثالث: وفي الواقع، فان عددا من أهالي الواحد والسبعين مراهقا «لاجئا» قد ولدوا في الضفة الغربية (في أريحا او في القرى المجاورة). وعلى هذا، فان لدينا في الواقع مجموعتين: مجموعة أولئك الذين عاش أجدادهم الترحيل، ومجموعة أولئك الذين غادر أهلوهم قراهم الأصلية. وبطبيعة الحال، فانه يكون من المهم والمفيد ان نحاول، لحظة تحليل محتوى الاستمارات، رؤية الدور الممكن لهذه المتغيرة في الأجوبة المحصلة.

ومن جهة اخرى، فان عينة تلاميذ رام الله، التي تبدو على أساس مؤشر أصل الأهل ذاته متجانسة، تنقسم الى مجموعتين فرعيتين هما: الفلسطينيون المتحدرون من شرق فلسطين (اي من الضفة الغربية)، واللاجئون الفلسطينيون. وبطبيعة الحال، فاننا لا نستطيع هنا إلا ان نعزل مجموعة

المراهقين اللاجئين من الجيل الثاني: اذ ليست لدينا أية وسيلة لنعرف ما إذا كان قد جرى تهجير أجداد مجموعة تلاميذ رام الله.

وفي النهاية، نصل الى التوزيع التالي:

الجدول رقم (٥)
أصول عائلات المائة مراهق

	عين السلطان	عقبة جبر	رام الله
غير لاجئين	—	—	١٣
لاجئون من الجيل الثاني	١٥	٢٣	١٥
لاجئون من الجيل الثالث	٢٩	٢	؟
غير متعرف الى أصولهم*	٢	—	١

* الحالات التي يكون فيها اسم محل أصول الأب غير مقروء.

تؤكد دراسة قرى المصدر او الأصل، بالنسبة الى الثلاثة والخمسين لاجئا من الجيل الثاني، الوصف المعتاد الذي يقدم لتيارات المنفى الكبرى: فأغلبية الفلسطينيين الذين لجأوا الى منطقة القدس (التي تشمل رام الله وأريحا) كانت من سكان قرى السهل الساحلي الخفيض وشمال النقب. ويتيح لنا الجدول رقم ٦ ان نوضح تاريخ بعض من هذه العائلات، وذلك بالرجوع الى دراسة أجراها مؤلف اسرائيلي على القرى العربية التي أُفرغت من سكانها خلال ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩.(٦)

(٦) Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949* (Cambridge: Cambridge University Press, 1987).

الجدول رقم (٦)

أصل اب الثلاثة والخمسين لاجئا من الجيل الثاني

وشروط الترحيل

المدينة / القرية	سبب الرحيل**	التاريخ	العدد
صرفند*	خوف	نيسان/إبريل ١٩٤٨	٢
المسمية*	هجوم	٨ ــ ١٩٤٨/٧/٩	١
الدوايمة*	طرد	١٩٤٨/١٠/٢٩	٥
صفرية*	؟		١
جليا*	تأثير سقوط	٩ ــ ١٩٤٨/٧/١٠	١
بئر السبع*	هجوم	١٩٤٨/١٠/٢١	٢
إذنبة*	تأثير سقوط	١٩٤٨/٧/١٠	١
الرملة*	هجوم	١٠ ــ ١٩٤٨/٧/١٣	٣
عين جدي			١
العباسية			٥
دير ديوان			١
المسمية الكبيرة*	هجوم	٨ ــ ١٩٤٨/٧/٩	٢
بيت عفّة*	؟		١
البرية*	هجوم	١٠ ــ ١٩٤٨/٧/١٣	١
المنصورة*	هجوم	١٩٤٨/٤/٢٠	١
يافا			٧
عراق المنشية*	طرد	شباط/فبراير ــ آذار/مارس ١٩٤٩	١
دير نخّاس*	هجوم	١٩٤٨/١٠/٢٩	١
تل عراد			١
جيسر و*	هجوم	١٩٤٨/٧/١٠	١
النصيرات (مخيم في قطاع غزة)			١
عنابة*	هجوم	١٩٤٨/٧/١٠	١
قزازة			١
التينة*	هجوم	٨ ــ ١٩٤٨/٧/٩	١
عجور*	هجوم	٢٣ ــ ١٩٤٨/٧/٢٤	١

جفته				١
اللّد				٤
الرامة (الجليل)				١
لفتا				١
غزة				١
لبنان				١
				٥٣

* قرى عربية أُفرغت من أهليهـا خلال ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ وتُمثّل في دراسة بني موريس المذكورة أعلاه.

** سبب الرحيل وفقا لبني موريس:

خوف: خوف من هجوم يهودي، او خوف من الوقوع بين ناري المتحاربين.

هجوم: هجوم عسكري للقوات اليهودية على القرية.

طرد: طرد مارسته القوات اليهودية.

تأثير: تأثير السقوط، او ترحيل القرى المجاورة.

؟: سبب الرحيل لم يورده المؤلف.

وباختصار، فان لدينا هنا التأكيد ان هؤلاء المراهقين لا يرزحون تحت وزن شروط معيشتهم الحالية الصعبة (الحياة في ظل الاحتلال الاسرائيلي، والانتفاضة بالنسبة الى الجميع، والوضع المالي الهش على الأقل بالنسبة الى من يرتادون مدرستيّ الأونروا) فحسب، بل ان نحو النصف منهم يرزح كذلك تحت وزن القطيعات المولدة للجروح النفسية والتي عاشها أهلوهم وأجدادهم. بل ان لدينا معلومات فيما عنى ٢٦ منهم مصدرها كاتب يهودي يستند الى مصادر اسرائيلية، ويتيح لنا ان نعرف شروط العنف التي غادر أهالي هؤلاء الأطفال فيها قراهم، وكانوا هم انفسهم أطفالا حينذاك ولا ريب؛ فالسبب الرئيسي لرحيل السكان، في القرى الست عشرة التي نجدها هنا، قد كان مهاجمة القوات اليهودية للقرية. ويوضح الكاتب ان الخط الفاصل بين الهجوم على القرية وطرد سكانها منها، هو خط ضبابي مهتز ومشوش.(٧)

(٧) *Ibid.*

رابعا: أنا المراهقين المثالي

ان النصوص التي كتبها المراهقون متفاوتة الطول (من ثلاثة أسطر الى صفحة)، ونصوص طلاب عين السلطان تنزع أكثر من النصوص الأخرى الى القصر. وما يدهش، لدى القراءة الأولى، المستوى المتدني في اللغة العربية. فالجمل تعاني من حيث المبنى، وفي الكلمات الكثير من الأخطاء، والكتابة مبهمة وتعصى على القراءة أحيانا. وثمة إضافات في أدنى النص: تعليقات على الوضع، ورسوم، ونصوص أناشيد وطنية.

وقبل ان ندخل في تفاصيل تحليل تمايزي للأجوبة تبعا للمتغيرات المختلفة، ينبغي لنا ان نبدأ بدراسة وصفية لمحتوى هذه «المحاولات». اذ من هم أولئك الذين يتماهى مراهقونا معهم؟ من تراهم اتخذوا مثالا أعلى؟

لقد وزعنا أنماط المُثُل على ثلاث فئات (شأن جيرار لوته): المُثُل التي يعرفها الأحداث بأنفسهم (مثال «الوسط المجاور»)، ثم المُثُل الأبعد مكانا، وأخيرا المُثُل العليا التي يخلقونها (المثال «المُشَخَّصْ»). وبهذا نحصل على التوزيع التالي:

الجدول رقم (٧)
نمط المثال الأعلى

المثـال	فتيات		صبيان		المجمـوع (البنات والصبيان مجتمعين)	
	العدد	النسبة المئوية (٪)	العدد	النسبة المئوية (٪)	العدد	النسبة المئوية (٪)
مثال أعلى مجاور	٢٦	٦٢	١٧	٢٩	٤٣	٤٣
ام أو أب	١	٢	١	٢	٢	٢
أقارب آخرون	١	٢	—	—	١	١
راشدون يعرفهم المراهق شخصيا	٢١	٥٠	١١	١٩	٣٢	٣٢

شبان راشدون	٣	٧	٥	٩	٨	٨
مثال أعلى بعيد	٣	٧	١٩	٣٣	٢٢	٢٢
كوادر في منظمة التحرير الفلسطينية	٣	٧	١٢	٢١	١٥	١٥
أبطال تاريخيون*	—	—	٤	٧	٤	٤
دلال المغربي	—	—	١	٢	١	١
مطرب	—	—	١	٢	١	١
الملك حسين	—	—	١	٢	١	١
مثال أعلى شخصي	١٣	٣١	٢٢	٣٨	٣٥	٣٥

* أنظر ادناه، ص ٩٣ .

إذا أخذنا الجدول رقم ٧ نلاحظ:

١ ـ ان الفتيات اخترن مُثُلهن من الوسط المجاور.

٢ ـ ان الصبيان اختاروا مثالاً شخصيا، أي صيغ صيغة شخصية بنسبة تفوق نسبة اختيار البنات.

وهكذا إذاً، بالنسبة الى فئة المثال المجاور، فان ٦٢ ٪ من البنات و ٢٩ ٪ من الصبيان اختاروا مثالهم الأعلى من الأشخاص الذين يعرفونهم مباشرة. وقليل منهم اختار والده او والدته (فتاة واحدة، وصبي واحد)، او عضوا آخر من أعضاء الأسرة. وكذلك، فان قليلين اختاروا مثالهم من شبان محيطهم (ثمانية طلاب فقط). ومجموع الراشدين الذين يعرفونهم بصورة شخصية، يشغلون المهن التالية:

الجدول رقم (٨)

المهن التي يشغلها الراشدون «المعروفون بصورة شخصية»

(٢١ فتاة، و ١١ صبيا)

المهنة	فتيات		صبيان	
	العدد	النسبة المئوية (٪)	العدد	النسبة المئوية (٪)
مزارع	٤	١٩	٤	٣٦
طبيب	٤	١٩		
مدرّس	٤	١٩	٣	٢٧
مناضل	١	٥	٣	٢٧
صحافي	٢	١٠		
عامل	١	٥		
سائق	١	٥		
مستخدم تعاونية	١	٥		
كاهن	١	٥		
ممرضة	١	٥		
غير موضح	١	٥	٣	٢٧
	٢١		١٣*	

* اشار صبيان الى «مهنتين» كمثال أعلى لهما.

لنلاحظ، قبل ان نعلق على هذا الجدول، انه كان يصعب علينا في بعض الأحيان ان نقيم الفارق ونميز فيها عنى المحاولات الأقصر بين شخص «عيني حقيقي» ولكن «بعيد»، وبين شخص «معروف شخصيا». ثم اننا، من جهة اخرى، ارتبنا لدى قراءة بعض النصوص التي تحمل مؤشر «شخص عيني حقيقي» (وفقا للاشارة المكتوبة)، في «عينية وحقيقة» الشخص الموصوف: فقد بدا لنا ان هذه الاشارة يمكن ان تكون إعرابا وتعبيرا عن يقين المراهق من ان المثال الأعلى الشخصي او «المُشخَّص» الذي يصفه يمكن ان يوجد، وأنه ليس

حلما طوباويا. وقد انطرحت هذه المسألة عندما وجدنا ان المثال الأعلى الموصوف كان فلسطينيا مسيسا، اي مناضلا على سبيل المثال؛ ذلك بأن المراهق أشار الى «شخص حقيقي ومتكثر»، معربا بذلك عن الفكرة في انه يصف الفلسطيني ـ الأنموذجي، الذي كثيرا ما نصادفه، وعن تعلقه بما يشكل فردانية الشخص ويكوّنها.

أما أنماط الراشدين المعروفة من الفتيات بصورة شخصية، فتمارس مهنا أكثر تنوعا من مهن الأنماط التي يعرفها الصبيان. وتَمثّل فئة «المناضل» هنا كمهنة بين مهن أنماط الراشدين (اختارتها فتاة واحدة، وثلاثة صبيان)، وذلك حين يجري وصف هذه الصفة صراحة «كمهنة» للمثال او للنمط المختار (وهذه حالة فتاة واحدة، وصبي واحد)، او بصفتها النشاط الرئيسي للنمط المختار (وهذه حالة صبيين اذ شددا في إجابتيهما على النشاطات النضالية، كما أوردا نشاطا ملحقا):

ــ فتاة: «انه جندي يمضي وقته في رمي الحجارة على الصهاينة.»

ــ صبي: «مهنته مناضل، يكافح ويقاتل لتحرير بلاده من قبضة اسرائيل.»

ــ صبي: «فدائي يقاتل من أجل الحرية... يعمل في مزارع اليهود، ولكنه يفكر أبدا بأرضه وحريته المغتصبتين.»

ــ صبي: «... رجل كرّس حياته كلها لوطنه وحريته... معلّم يناضل لتحرير ارضه.»

فأما بالنسبة الى الشبان ــ الراشدين الذين اختاروهم كمثال أعلى (خمسة صبيان، وثلاث بنات) فهم، في حالة اربعة صبيان، تلامذة جامعيون (وفي احدى هذه الحالات نجد الطالب ــ المثال معتقلا في السجن بسبب نضاليته النشيطة). أما بالنسبة الى الآخرين فهم أنداد ونظائر، اي طلاب ثانويون.

لننظر الآن بالتفصيل الى المُثُل العليا «البعيدة» التي اختارتها نسبة ٣ ٪ من الفتيات و ١٩ ٪ من الصبيان.

انهم، بادئا، ينتمون الى فريق قادة منظمة التحرير الفلسطينية. وبعض

النصوص لا يسمّي الشخص لكنه يشير اليه بكلمتي «فدائي» او «جندي». ويتمثله مدججا بالسلاح ويضع خطط المعركة، وكشخص عيني يضطلع بمسؤولياته في كفاح الشعب الفلسطيني. وفي بعض النصوص الأخرى، هناك تسمية صريحة لرئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ابو عمار، او ابو جهاد القيادي الذي كان مكلفا على نحو خاص بالعمليات العسكرية في الأراضي المحتلة واغتاله الاسرائيليون في ربيع سنة ١٩٨٨ في تونس. ويجب ان نضيف الى هذه المجموعة اسم دلال المغربي، المقاومة الفلسطينية التي اشتهرت بعملياتها العسكرية.

الجدول رقم (٩)
المُثُل العليا «البعيدة»
المرتبطة بمنظمة التحرير الفلسطينية

	فتيات	صبيان
إطار (كادر) غير مذكور بالاسم من أطر م. ت. ف.	٢	٥
ابو عمار	١	٢
ابو جهاد	—	٥
دلال المغربي	—	١

وفي فئة أبطال التاريخ نجد وجوها تترادف أسماؤها مع فتوحات الاسلام: خالد بن الوليد (بطل اليرموك)، وصلاح الدين الأيوبي (الذي حكم مصر وفلسطين وجزءا من سوريا واشتهر بحملاته ضد الصليبيين)، والخليفة عمر (المشتهر بالقدوة والعادل والقوي).

ولنسجل فيما عنى هؤلاء الأبطال «البعيدين» ان «النجوم» الذين كثيرا ما يختارهم المراهقون الأوروبيون الذين يتحدث جيرار لوته عنهم (الأبطال الرياضيون، والمطربون، والممثلون) لا يجتذبون ـ كما يمكن ان نتوقع ـ الأحداث الفلسطينيين: فلم يكن هناك سوى صبي واحد اختار مثاله بين المطربين واختار المطرب المصري عبد الحليم حافظ، لأغنياته العاطفية.

وأخيرا، فان طالبا واحدا (من مدرسة رام الله الخاصة) اختار الملك الأردني حسين، لا لأسباب سياسية وإنما لديناميته وحميته في تشجيع الفرق الرياضية الأردنية في المباريات الدولية؛ أما دوره السياسي إزاء الفلسطينيين فموضع نقد شديد «. . . فله أوقات للشغل وأوقات للرياضة والتشجيع. والدليل على ذلك عند مباراة دورة العرب الخامسة التي اقيمت في الأردن، لعب منتخب الأردن مع منتخب سوريا. بعد مجيئه من السفر من مصر لم يسترح بل ذهب الى ستاد عمّان الدولي ليشجع فريقه. هذا العمل ألهب حماسة اللاعبين. وفعلا فازوا على سوريا. هذا الفعل فعل عقلاني فهو كسب حب الشعب له. . . هذا الشخص وسيم ولطيف لكني (لا أحبه) لكني اريد أن اكون مثله في كل الصفات عدا صفة الجبن لأنه لو شجاع لما ترك الشعب الفلسطيني. . يناضل لوحده. . .»

لننظر الآن في موضوع «المثال المشخص»: لقد رأينا ان ٣١ ٪ من البنات و ٣٨ ٪ من الصبيان لم يختاروا شخصا عينيا موجودا، وإنما اصطنعوا شخصا. وهنـاك، لدى الصبيان، ٢٠ أشاروا الى مثال مذكر بينما أوضـح إثنان انه ليس للجنس اهمية. أما لدى الفتيات فان سبعا اخترن مثالا من جنسهن، وأربعا اخترن مثالا من الجنس الآخر، بينما أوضحت اثنتان ان الجنس ثانوي بالنسبة اليهما.

الجدول رقم (١٠)
جنس المثال الأعلى المُشَخَّص تبعا لجنس المراهق

جنس المثل الأعلى	بنـات		صبيـان	
	العدد	النسبة المئوية (٪)	العدد	النسبة المئوية (٪)
مؤنث	٧	٥٤	—	
مذكر	٤	٣١	٢٠	٩١
غير مهم	٢	١٥	٢	٩
	١٣		٢٢	

ان النسب المئوية التي حصلنا عليها لدى الصبيان لا تثير الدهشة مطلقا؛ وفي المقابل فان المهم، من أجل ان نفهم النسب المئوية التي حصلنا عليها لدى الفتيات، ان نقابل النتائج الواردة أعلاه بالنتائج الاجمالية المحصلة لمجمل أنماط المُثُل العليا من جهة، وأن نقابلها ــ من جهة أخرى ــ بالنتائج الواردة في دراسات اخرى من النوع ذاته.

وتشير نتائج مجمل أنماط المُثُل العليا، كما تظهر في نصوص المراهقين، الى ان عددا مهما من الفتيات يختار مثالا أعلى من الجنس المقابل.

الجدول رقم (١١)
جنس المثال الأعلى تبعا لجنس المراهق
محسوبا على العينة كاملة (مائة مراهق)

جنس المثل الأعلى	بنات		صبيان	
	العدد	النسبة المئوية (٪)	العدد	النسبة المئوية (٪)
مذكر	٢٣	٥٥	٥٥	٩٥
مؤنث	١٧	٤٠	١	٢
غير مهم	٢	٥	٢	٣
	٤٢		٥٨	

وإذا ما رجعنا الى العينة الأوروبية التي يقدمها جيرار لوته، والى دراستنا التي قمنا بها سنة ١٩٧٥ في تل الزعتر، نلاحظ ان ١٧,٨ ٪ من المراهقات الأوروبيات اخترن مثالهن الأعلى من الجنس الآخر، في مقابل ٤٦,١٥ ٪ من مراهقات تل الزعتر الفلسطينيات و ٥٥ ٪ من مراهقات عينتنا الفلسطينيات في الضفة الغربية. وفي وسعنا الاعتقاد ان هذه الأرقام تترجم تطلعات الفتيات الفلسطينيات الى الخروج من الصورة التقليدية، وعيش حياة أكثر حرية وأوفى نشاطا. وبالنظر الى ندرة المُثُل النسائية «المتحررة» والمقبولة اجتماعيا، في

وسطهن القريب، فانه لا يبقى لهن من إمكان آخر سوى إمكان الاختيار من الجنس الآخر. ويبقى ان هذا التأويل لا يستبعد تصورا آخر مختلفا للأشياء: فقد تكون المعالجة الانشائية قد تحولت، بالنسبة الى المراهقات، الى ذريعة للحديث عن الشاب المثالي، عن الخطيب المتمنًى؛ لكن هذا التأويل الأخير يبدو ثانويا (فهو فيما يظهر لا ينطبق إلا على ملف واحد، اذ راحت المراهقة تصف سائقا بشيء من الرومانسية...[8]). لكن عندما ننتقل الى مجال المتخيل، فان اختيار المثال الأعلى من الذكور لا يعود يمثل هذه الضرورة بالنسبة الى الفتيات: فالأرقام تهبط من نسبة ٥٥٪ الى نسبة ٣١٪.

ما هي إذاً، الآن، مهن هذه المُثُل العليا المتخيَّلة؟

الجدول رقم (١٢)

المهن التي تشغلها المُثُل العليا المشخصة

المهن	بنات		صبيان	
	العدد	النسبة المئوية (٪)	العدد	النسبة المئوية (٪)
تلميذ / طالب	٢	١٥	١	٥
أستاذ	٢	١٥	—	
مزارع	١	٨	٤	١٨
مناضل	١	٨	—	
جندي	١	٨	٤	١٨
فدائي	١	٨	١٠	٤٥
غير موضح	٥	٣٨	٣	١٤

(٨) أنظر أدناه، ص ١٢١ ــ ١٢٢.

وبطبيعة الحال، فانه يجب اخذ التعليقات التي يمكن القيام بها بتحفظ، نظرا الى صغر الأعداد.

نجد هنا ظاهرة أسلفت الاشارة اليها أعلاه: فالمهن تصبح أكثر تنوعا في حالة مُثُل الفتيات العليا منها في الحالة المقابلة، اي في حالة مُثُل الصبيان. والتوزيع الذي يظهره الجدول رقم ١٢ يشير كذلك الى تثمين للدراسة والتحصيل، اي الى إضفاء قيمة إضافية عليها يبدو أكثر اهمية في حالة الفتيات منه في حالة الصبيان؛ فاكتساب المعارف هو، بالنسبة اليهن، وسيلة ولا ريب للوصول الى وضع يكون محل اعتراف أفضل بهن.

ومهنة المزارع، التي كانت تحتل منزلة حسنة بين المهن التي يمارسها الراشدون المعروفون من المراهق شخصيا، تعاود البروز هنا أيضا؛ لكن هذه المهنة لا ترد إلا نادرا لدى المراهقين موضوع دراسة جيرار لوته، ولا يذكرها مراهقو تل الزعتر البتة. ويمكن المقاربة بين الجاذبية التي تمارسها هذه المهنة على المراهقين وبين الجاذبية التي تمارسها الطبيعة والعمل في الحقول، وتعرب عن نفسها في رسوم الأطفال،(٩) إذ يجب ألا ننسى ان المجتمع الفلسطيني كان في الأصل مجتمع فلاحين، وأن مراهقي منطقة أريحا خاصة يعيشون في منطقة ظلت الزراعة نشاطها الرئيسي. وقد رأينا ان أهالي هؤلاء المراهقين غالبا ما يعملون عمالا زراعيين (خلافا لمراهقي مخيم اللاجئين في بيروت). غير انه يظل من الصحيح ان السبب الرئيسي للمهابة التي تتمتع هذه المهنة بها هو، ولا ريب، الرمزية المتصلة بها: فارتباط كل فلسطيني بأرضه ارتباط فيزيقي طبيعي، بمثل فيزيقية ارتباط الفلاح بترابه. والرجوع الى زراعة الأرض هو، في كل حال، احد شعارات الانتفاضة: ففي القرى ينظم فلسطينيو لجان الأحياء زراعة الجناين وتربية الحيوانات الأليفة لتحقيق الاكتفاء الذاتي، ومقاطعة مصادر التموين الاسرائيلية. وستتاح لنا، لاحقا، فرصة العودة الى

(٩) أنظر أعلاه، ص ٦١ ــ ٦٢.

هذه الموضوعة عند الحديث عن اجوبة المراهقين عن الأسئلة الواردة في استمارة الهوية: «من أنا؟»(١٠)

وإذا واصلنا قراءة جدول المهن الوارد أعلاه، فاننا نجد ثلاث فئات شديدة الارتباط فيما بينها، وإن كنا فصلنا بينها: مناضل، وجندي، وفدائي. وفئة «المناضل» تستجيب للمعايير ذاتها الواردة في صفحة ٩٢ . وأما فئتا «جندي» و «فدائي»، فانهما متطابقتان لكن استخدام مصطلحين لحقيقة واحدة كان أمرا استرعى انتباهنا. فمراهقو تل الزعتر لم يكونوا يستخدمون إلا كلمة «فدائي». إذ لمّا كانوا لاجئين خارج فلسطين، فان بطلهم كان عضوا في جيش تحرير، اي انه لم يكن يسعه ان يكون «جنديا». فمصطلح جندي يستحضر الجيش النظامي لدولة. والفدائي، بالنسبة الى مراهقي الضفة الغربية، يظل رمز النضال من أجل التحرر الوطني. لكن السيادة على ارض فلسطين هي هدف الحركة التي التزموا فيها جميعا؛ ويقينا ان الدولة تبدو لهم اقرب منالا مما كانت تبدو لمراهقي تل الزعتر سنة ١٩٧٥! وستتاح لنا لاحقا فرصة مقارنة اجوبة مجموعاتنا الثلاث (عين السلطان، وعقبة جبر، ورام الله). إلا أننا نستطيع ان نسجل، من الآن، ان اربعة من المراهقين الذين فضلوا كلمة «جندي» هم من طلاب عين السلطان، أما الخامس فطالب في عقبة جبر.

وعلى الرغم من الطلب الصريح الوارد في النص المعروض على المراهقين، فان ٣٨٪ من البنات و ١٤٪ من الصبيان لم يوضحوا مهنة مثالهم الأعلى. وفي كل حال، فان مهنة المثال الأعلى لا تبدو (اللهم فيما عدا بعض الفئات الخاصة مثل إطار في منظمة التحرير الفلسطينية، جندي، فدائي، مناضل...) الباعث الرئيسي على اختيار هذا المثال قدوة. وفيما يتعلق بالأرقام الواردة أعلاه في شأن المثال الأعلى المشخص بالذات، فاننا نلاحظ ان الفتيات ـ وبأغلبية واضحة قياسا بالصبيان ـ هن اللاتي لم ينسبن مهنة الى مثالهن الأعلى. وهذا التفاوت بين الطرفين يمكن ان يكون تعبيرا عن الصعوبة التي

(١٠) أنظر أدناه، ص ١٣٢ ـ ١٣٤.

تواجهها البنات في تصور برنامج حياة شخصية، بالنظر الى الحدود التي يفرضها نظام القيم في المجتمع. لكن الملاحظ هو ان اية فتاة لم تجعل مثالها الأعلى ان تصبح «ربة بيت»، خلافا للمراهقات الأوروبيات.

واذا استرجعنا نصوص المراهقين الثمانية الذين لم يوضحوا مهنة مثالهم الأعلى، فاننا نستطيع تصنيفهم في ثلاث مجموعات. والنص قصير نسبيا في حالة ثلاث فتيات وصبي، مع إشارات فقط الى المظهر الخارجي للمثال وطبعه وهواياته. وثمة صبي وفتاة يشيران، بين ما ينسبانه من خصائص الى هذا المثال، الى وطنيته. كما ان ثمة فتاة وصبيا آخران لا يوضحان كذلك مهنة مثالهما الأعلى، لكنهما يعرضان برنامج حياتهما الشخصية متمحورا حول مطلبي الحرية والاستقلال:

- بنت: «... احب ان اعيش كعربية فلسطينية حرة في بلادي وعلى أرضي التي يحتلها اليهود... اريد ان اعيش في دياري بأمن وبدون خوف...»
- صبي: «... لا أريد ان اعيش بلا وطن... أنا فلسطيني... وأريد ان ارى العلم يرفرف فوق كل شيء.»

ويبدو سلفا، في هذه المرحلة من تحليلنا الوصفي (وعلى الرغم من أننا لم نتناول بعد تحليل قيم المثال الأعلى)، ان عددا مهما من المراهقين يتماهى مع الوجوه التي ترمز الى الكفاح الوطني للشعب الفلسطيني:

الجدول رقم (١٣)

توزع الوجوه التي ترمز الى الكفاح الوطني للشعب الفلسطيني

	بنـات	صبيان
راشدون معروفون من المراهق شخصيا:		
مناضل	١	٣
مُثُل عليا بعيدة:		
كوادر منظمة التحرير الفلسطينية	٢	٥
ابو عمار	١	٢

ابو جهاد	—	٥
دلال المغربي	—	١
مُثُل شخصية :		
مناضل	١	—
جندي	١	٤
فدائي	١	١٠
	٧	٣٠

وهكذا، إذاً، فان ٥٢ ٪ من الصبيان و١٧ ٪ من البنات اختاروا مثالا ملتزما، بصورة مباشرة، الكفاح من أجل التحرير. ويمكن أن يفضي تفاوت النسب المئوية الى الافتراض ان الصبيان معنيون، أكثر من الفتيات، بالتطورات السياسية العسكرية، ويعيشون هويتهم الفلسطينية بصورة أعمق وأغزر. إلا ان استخلاص مثل هذه الخلاصة امر سابق لأوانه؛ فدراسة قيم المثال الأعلى، وكذلك تفحص استمارة الأسئلة عن الهوية، سيتيحان لنا لاحقا العودة الى دلالة هذه الأرقام.

ان نص السؤال الذي يتطلب من الطالب الاجابة بتوسع كان يطلب من المراهقين كذلك ان يصفوا المظهر الخارجي لمثالهم الأعلى. لكن هذا الوصف ظل ثانويا جدا، لأن ٢٤ ٪ من الفتيات و٤٥ ٪ من الصبيان لم يتناولوا هذا الوجه. وإذا كانت نسبة مئوية أعظم، من الفتيات، قد عمدت الى ملء هذه الخانة (الأمر الذي يسير في الوجهة نفسها التي تسير فيها الخلاصات المتعلقة بالمراهقين الأوروبيين وبمراهقي تل الزعتر)، إلا انهن غالبا ما كتبن، وبأكثر مما كتب الصبيان، ان «المظهر الخارجي ليس مهما» (ذكر ذلك ١١ فتاة في مقابل ٣ صبيان)! ومن جهة اخرى، فان العدد المتوسط من الاشارات المتعلقة بالمظهر الخارجي في النص، والتي تتناول هذا المظهر، لا تتدنى لدى الصبيان بصورة محسوسة. وبعبارة اخرى، فانه إذا كان الصبيان قد تناولوا هذا المجال في نصوصهم، إلا انهم قدموا من المؤشرات بقدر

ما قدمت الفتيات. لمّح ٣٢ فتاة و ٣٢ صبيا الى المظهر الخارجي: ولدينا من جهة ٥٨ إشارة اليه لدى الفتيات، و ٥٦ من الجهة الأخرى لدى الصبيان.

وإذا كانت الفتيات يلححن على أناقة مثالهن الأعلى (رجلا او امرأة) ونظافته وقيافته وجماله، فان الصبيان يلحّون على طول قامته وقوته والتصميم الذي يتبدى من عينيه. ولم يكن هناك سوى فتاة واحدة وصبي واحد قدما وصفا لمثال أعلى يعتمر الحطّة الفلسطينية التقليدية.

ولنتناول الآن أوقات فراغ، اي تسلية المثال الأعلى او هواياته. نجد هنا ان المراهقين أولوا هذه الخانة اهمية أقل حتى من تلك التي أولوها للخانة السابقة (اي للمظهر الخارجي)؛ ذلك بأن ٤٢ مراهقا تجاهلوها (١٦ فتاة و ٢٦ صبيا، اي ٣٨ ٪ من البنات و ٤٥ ٪ من الصبيان). أما الفتيات الست والعشرون والصبيان الواحد والعشرون الباقون، فانهم أعطوا على التوالي ٣٥ و ٣٩ إشارة الى أوقات الفراغ، اي الى التسلية والهوايات.

ولائحة هذه الاشارات تذهل ببساطتها: فنحن هنا بعيدون، في الواقع، عن التسليات والهوايات المعقدة التي تنصرف اليها مُثُل الشبيبة الأوروبية، ومرد ذلك عدة أسباب: أولها، ان إمكانات شغل أوقات الفراغ قليلة هنا، وخصوصا في منطقة أريحا نتيجة فقر الموارد في ميدان التسلية (السينما، والمسرح، والحفلات الموسيقية...)، ونتيجة فقر الموارد المالية. فنحن هنا بعيدون عن مجتمع استهلاك التسليات الذي يملي على المراهقين الأوروبيين خياراتهم. ومن جهة اخرى، فانه لا الصبيان ولا الفتيات يملكون ما يكفي من الاستقلال الذاتي إزاء وسطهم العائلي بحيث يجرؤون على الحلم بنشاطات اخرى للتسلية.

وأخيرا، فانه ينبغي لنا ألا ننسى ان الوضع الذي وضعنا أنفسنا فيه يندرج داخل سياق الانتفاضة. فوتيرة الحياة اليومية تنتظمها بيانات «القيادة الموحدة للانتفاضة» التي تحدد أيام الاضراب العام والتظاهرات، والتدخلات العقابية التي يقوم الجيش الاسرائيلي بها، والحد من التنقلات بسبب حالة الأمن (الحواجز، ومنع التجول). ونتيجة ذلك فان التجوال والنزهات العائلية

التي كانت نشاطات التسلية الرئيسية لم تعد ممكنة. وأما النزهات المدرسية الممكنة فانها لم تعد واردة هي الأخرى، وخصوصا ان الجيش الاسرائيلي سيعتبرها نشاطات جماعية منظمة وبالتالي مشبوهة. وكما رأينا فيما سبق، فان الانتفاضة غيّرت عادات السكان الحياتية وقيمهم.(١١) فعلى صعيد التسلية، وخصوصا فيما عنى مفهوم «العيد»، فان التغيير كان مهما: فالشعب الفلسطيني، في مجمله، يحاول ان يكون متضامنا في التعبئة والجهد والحرمان والحداد على «الشهداء».

وعلى هذا، فان ليس من المدهش ألا يكون كثير من التسليات، المشار اليها في الاجابات، تسليات بالمعنى الحقيقي للكلمة. لكننا أوردنا هذه الإشارات، على الرغم من كل شيء، في هذه الخانة لأن الصبيان والفتيات يشيرون صراحة اليها كنشاطات مثالهم الأعلى في «تسلياته» او في «أوقات فراغه». وقد حاولنا تصنيف هذه النشاطات منطلقين من أكثرها «فردية» الى أكثرها «التزاما»، ثم جمعناها في أربع خانات تمثل في الجدول رقم ١٤: نشاطات «ترويحية»، وتسليات «جدية»، وتسليات «تعاضد»، وتسليات «ملتزمة».

ونلاحظ ان الصبيان أكثر من البنات إشارة الى نشاطات التسلية بالمعنى الحقيقي للكلمة، كما سبق ان لاحظنا الملاحظة ذاتها بشأن مراهقي تل الزعتر. أفلا نستطيع ان نرى في هذا نتيجة للوضع الخاص بالمرأة والفتاة في المجتمع؟ فالفتاة الصغيرة التي تعود من المدرسة ينبغي لها ان تساعد أمها في الأعمال المنزلية، في حين يعتاد الصبي الصغير على تنظيم أوقات فراغه في اللعب. وعمل ربة الأسرة عمل لا نهاية له، أما عمل الأب فأكثر انحصارا في الزمن.

ثم اننا نجد، من جهة اخرى، نزعة لدى الفتيات الى إضفاء كثير من القيمة على التسليات «الجدية»، الأمر الذي يبدو تأكيدا لاضفاء قدر أعظم من

---

(١١) أنظر أعلاه، ص ٥٠.

القيمة على الدراسات والمعارف التي لّمحنا اليها أعلاه. وإنما يظهر الفارق بين الفتيات والصبيان، أكثر ما يظهر، على مستوى تسليات «التعاضد»: ونحن هنا نستبق، في الواقع، موضوع الفارق بين قيم هؤلاء وهؤلاء؛ فالبنات يتميزن بغيرتهن. وفي كل حال، فان التمييز بين تسليات «التعاضد» والتسليات «الملتزمة» تمييز هش رقيق. أليس ان تسليات «التعاضد» هي مساهمة الفتيات الفذة في الالتزام؟ وإذا كان التضامن قيمة أولية في مجتمع تقليدي كالمجتمع الفلسطيني، فانه يكتسب قيمة إضافية في سياق الانتفاضة حيث تظهر ويجري تقديمها كمفتاح لمواصلة الانتفاض وبقاء الهوية الفلسطينية.

والصبيان أكثر ذكرا للتسليات «الملتزمة».

الجدول رقم (١٤)

توزع مؤشرات تسليات المثل العليا بحسب الجنس

نشاطات التسلية	البنات		الصبيان	
	العدد	النسبة المئوية (٪)	العدد	النسبة المئوية (٪)
نشاطات «ترويحية»:	٦	١٧	١١	٢٨
اللعب	—		١	
الرياضة	١		٥	
الرحلات	١		—	
ارتياد ناد	—		٢	
مع أصدقاء	٢		١	
تاليف أغان، موسيقى	—		١	
مع الأسرة	٢		١	
تسليات «جدية»:	١٢	٣٤	٩	٢٣
عمل	٣		٢	
شغل الأرض	١		٣	
قراءة (ادب، علوم)	٦		٤	

كمبيوتر	١		—	
برامج «مفيدة» في التلفاز	١		—	
تسليات «تعاضد»:	٦	١٧	—	—
مساعدة الأسرة	١		—	
مساعدة اجتماعية	٢		—	
زيارة المستشفيات	٣		—	
تسليات «ملتزمة»:	١١	٣١	١٩	٤٩
يغني أغاني عن الأرض	—		١	
يسمع موسيقى وأناشيد وطنية	٢		١	
يقرأ الصحف	٥		١	
يضع مشاريع لبلده	١		—	
يذهب الى التظاهرات	—		٢	
يضع خططا عسكرية او سياسية	١		١١	
تدريب عسكري	٢		٣	
	٣٥		٣٩	

يبقى علينا الآن ان نهتم بشخصية، او طبيعة المثال وطبعه، وكذلك بنظام قيمه.

وقد سبق ان صنّف جيرار لوته، لدى عرضه النتائج، هاتين الموضوعتين، بعد ان ميّز في الترميز الذي اعتمده بين سمات الطبع والقيم. ذلك بأن التمييز بين الاثنتين دقيق في الواقع، كما ان من الصعب إيجاد فئات لهاتين الخانتين لا تمتلك سمات متشابهة. ونحن نجد، على سبيل المثال، في مبطقة رموز جيرار لوته فئتي «الحس بالواجب» و«المسؤولية» بين سمات الطبع. كما نجد فئتي «الأسرة» و«العمل» بين القيم؛ والحال ان الفارق بين محتوى هذه الفئات ليس بديهيا دائما.

أما نحن، فاننا فضلنا من جهتنا تمييز سمات الطبع من جهة، والاشارات الى معايير السلوك وقواعده من جهة اخرى. وقد فضلنا هذا

المصطلح لا لأنه يحدد لكل خانة محتوى مختلفا عن محتوى خانة «سمات الطبع» فحسب، بل لأنه أيضا يجنبنا الخلط بين الكلمات: فلنتصور معالجة إنشائية لطالب تولي الأهمية كلها لوصف المظهر الفيزيقي للمثال الأعلى، او لتسلياته على حساب معايير قواعد سلوك مثل الغيرية واحترام الحق والقانون والعدالة؛ إذ يسعنا حينذاك القول ان المظهر الخارجي او التسلية قد أصبحا من القيم على حساب معايير السلوك. والحق ان معايير السلوك ليست «القيم» الوحيدة الممكنة؛ فالمهنة والمظهر الخارجي والتسليات يمكن ان تصبح قيما.

وعلى هذا، فاننا جمعنا الاشارات المتعلقة بـ الطبع في الخانات التالية: تفاؤل/حماسة، شجاعة، مروءة، كرم، يريد الخير للجميع، صبور/مثابر، ذو ضمير/جاد، مهذب، قوي الشخصية، ذكي / مكتمل العقل، نزاهة، لطيف / باسم، متواضع، غير معقد، عنيد / فخور، متكلم، غير عنصري. ولنلاحظ أننا ميزنا بين «الكرم» (الذي ينطبق بصورة خاصة على الصلات بالأقربين والأصدقاء والضيوف) وبين «المروءة» او «التفاني الاجتماعي» (الذي يظهر في معايير قواعد السلوك) وبين «يريد الخير للجميع» (العبارة التي تبدو، بالصورة التي تعرب الأجوبة عنها، اقرب الى الوصف العام لكنايةٍ بمعنى «لا يحاول إيذاء الغير»).

ولنلاحظ بادئا ان الفتيات قدمن من الاشارات الى الطبع أكثر من الصبيان (٨٤ إشارة قدمتها ٤٢ فتاة في مقابل ٦٠ إشارة قدمها ٥٨ صبيا). إذ يتصف مثال الفتيات الأعلى، أولا وقبل كل شيء، بواقع انه «يريد الخير للجميع» (١٤ ٪ من الإشارات الى الطبع)، وأنه «ذكي / مكتمل العقل» (١٢ ٪ من الإشارات)، «لطيف / باسم» (٩ ٪)، «شجاع» (٩ ٪)، «نزيه» (٨ ٪). أما أكثر ما يورده الصبيان من المزايا والسمات، فـ «الشجاعة» (٣٢ ٪ من الاشارات)، «قوة الشخصية» (١٥ ٪)، وبعد ذلك بكثير تأتي واقعة انه «ذكي / مكتمل العقل» (٨ ٪)، و «يريد الخير للجميع» (٨ ٪). ونحن هنا نجد القطبين اللذين عودتنا دراسات علم نفس الفتيات والصبيان التمايزي عليها: فالفتيات من جهتهن يتعلقن بالمزايا العلائقية. أما الصبيان فيتعلقون

بمزايا الفعل والعمل. كما نجد سمة سبق ان رصدناها عدة مرات: الأهمية الكبرى التي توليها الفتيات للذكاء (والمعارف).

نصل الآن الى الخانة الأخيرة في وصف مثال المراهقين الفلسطينيين الأعلى: منظومة القيم اومعايير السلوك وقواعده. انها الخانة التي سنزيد في توقفنا عندها بالنظر الى أنها كانت أكثر ما ألهم أقلام هؤلاء الأحداث، كما يشهد بذلك الجدول رقم ١٥ الذي يستعيد توزيع الاشارات.

الجدول رقم (١٥)
توزع الاشارات

	الفتيات	الصبيان
المظهر الخارجي	٥٨	٥٦
التسلية	٣٥	٣٩
الطبع	٨٤	٦٠
قواعد السلوك	١١٩	٢١٢

نميز، بادىء ذي بدء، بين مجموعتين كبيرتين من معايير السلوك: فهناك من جهة أولى المعايير والقواعد المرتبطة بالوطنية الفلسطينية وبالنضال، وهناك من جهة ثانية المعايير والقواعد الأخرى (أنظر الجدول رقم ١٦).

وليس ثمة سوى ٨ نصوص (خمس فتيات من عين السلطان، وفتاة من رام الله، وصبي من عقبة جبر، وصبي من رام الله) لا تشتمل على معايير سلوك. وهي نصوص قصيرة تتميز بالانكباح والكبت.

وهناك ١٦ نصا كتبتها فتيات، و ٩ نصوص كتبها صبيان تشتمل على إشارات الى معايير سلوك، لكنها لا تضم إشارات الى معايير سلوك ترتبط بالوطنية او بالنضال.

أما بقية النصوص، اي ٦٧ ٪ مما حرره هؤلاء الأحداث، فتغلب عليها

معايير السلوك المرتبطة بالوطنية الفلسطينية والنضال (لدى ٤٨ ٪ من الفتيات، و ٨١ ٪ من الصبيان).

والخلاصة فيما عنى المعطيات المتعلقة بـ القيم التي لا ترتبط مباشرة بالوطنية والنضال، هي أننا نرى الفتيات يبرزن خلقية مثالهن الأعلى («سلوكه طيب، وعاداته خلوقة») وتفانيه الاجتماعي، ثم اتساع معارفه (اهتمامه بالثقافة)، ثم الأهمية التي يوليها للأسرة. أما الصبيان، فيقدمون الدين والهوية العربية والتعلق بالأرض، وبعدها الأخلاق.

ومن المفيد أن نتوقف بعض التوقف عند ما يقوله المراهقون في الدين أو على الأقل عند القيمة التعبوية لهذه الموضوعة في مثالهم الأعلى.

والواقع انه كثيرا ما نسمع الحديث عن العودة الى الأصولية الدينية في المجتمعات التقليدية، وخصوصا في المجتمع العربي؛ إذ يجري التلويح بشبح التعصب من دون تمييز في الغالب، كما يتم الخلط بين الجهاد كحرب مقدسة وبين حرب التحرير. ونحن لا ندعي لأنفسنا هنا الحسم بين من يقولون ان الحركات الأصولية تمتلك اهمية لا يستهان بها في تنظيم الانتفاضة الفلسطينية الحالية، وبين من يقولون ان دورها في ذلك دور ثانوي. فدعوانا أكثر تواضعا من ذلك كثيرا، لأننا نقتصر على إبداء ملاحظة: فقد وجدنا عشرة مراهقين فقط بين المائة مراهق (ثمانية صبيان، وفتاتان) يشيرون الى الدين كجزء من معايير وقواعد سلوك مثالهم الأعلى. ووجدنا ١٣ إشارة من أصل ٣٣١ إشارة الى معايير وقواعد السلوك (اي ٤ ٪ فقط) ترتبط بالدين. والملاحظ ان الفتيات الفلسطينيات غير معنيات كثيرا بهذه الموضوعة: فهناك فتاة واحدة مثالها الأعلى رجل دين (كاهن)، أما باقي الصبيان والفتيات الذين أشاروا الى هذه القاعدة السلوكية، فانهم يمتلكون مُثُلاً تتبع تعاليم الدين او تعمل على إشعاعه وزيادة تأثيره.

ولقد قدر لنا ان نلاحظ الملاحظات ذاتها في تل الزعتر سنة ١٩٧٥؛ فكتبنا في نهاية تحليل محتوى مختلف استمارات الأسئلة يومها: «يبدو، إذاً، ان المراهقين قليلا ما يضيفون قيمة كبرى الى موضوعة الدين، وأن الانتماء الديني

لا يقوم بدور كبير في وعي الهوية.» وأضفنا في الهامش: «ان أحداث لبنان التي اندلعت بعيد نهاية بحثنا، قد أظهرت رسوخ الطائفية لدى جانب مهم من الشعب اللبناني، في حين ان الفلسطينيين وبعض سواهم، ظلوا بمنأى عن الاهتياج والتفاقم الديني: فالفلسطيني المسيحي ظل الى جانب الفلسطيني المسلم طوال الحرب الأهلية، كما ان المخيم المسيحي، جسر الباشا، قاتل الى جانب مخيم تل الزعتر (وانتهى الى مثل نهايته).» ونستطيع ان نستعير المقالة نفسها هنا ونقول ان الفلسطيني المسيحي في القدس او بيت لحم او بيت ساحور يقف الى جانب الفلسطيني المسلم في صفوف الانتفاضة.

ولنلاحظ، قبل ان ننتهي من الموضوعات غير السياسية في المعالجات الانشائية للطلاب، ان صبيين اثنين لهما مثال أعلى يناصر المساواة بين الجنسين، وأن صبيا واحدا شدد على قيمة الثروة المادية. وهذا التفصيل الأخير يظهر جيدا قلة اهتمام هؤلاء المراهقين بأنماط الحياة الذهبية السهلة. وقد سبق ان لاحظ جيرار لوته، وهو يحاول تحليل خصائص ردات الفعل تبعا لتغيرات الوسط الاجتماعي ــ الثقافي، أنه فيما عنى الأوساط المعوزة فان «الإحباطات الأكثر عددا والناتجة من شروط الحياة الحالية، اومن مشاريع المستقبل ــ عندما تكون واقعية ــ تفسر ولا ريب لماذا نجد عددا أكبر منهم يتماهى مع نجم من النجوم، او يعرب بصورة اقوى وأعظم غزارة عن رغبته في المجد والنجاح.»[١٢] أما هنا، فانه يجري التسامي بالإحباطات عبر مثال أعلى جماعي: فالفلسطيني الواعي لهويته يبدو راغبا في الاضطلاع بجميع متضمنات هذه الهوية، والى حد التضحية بالحياة (فالمثال الأعلى لاثني عشر صبيا وفتاتين، مستعد للموت من أجل القضية الفلسطينية).

(١٢) أنظر: Lutte, *op. cit.*, p. 210.

الجدول رقم (١٦)

توزع الاشارات الى قواعد السلوك

	بنات	صبيان
معايير وقواعد سلوك مختلفة:		
الدفاع عن الإسلام	١	٥
يتبع تعاليم الدين	٣	٤
الدفاع عن العروبة	٢	٧
سلوك طيب / عادات خلوقة	١٣	٦
محبة الأطفال	١	٢
الأســرة	٤	٢
الأرض (بمعنى الزرع والخصب)	٢	٨
التفاني الاجتماعي	١١	٤
العلم / الثقافة	٨	٢
مساواة الجنسين	—	٢
الثــروة	—	١
الوطنية / النضال:		
حب الوطن	٢٠	٤٤
الاخلاص للشعب الفلسطيني (للأمة)	١٨	٣٦
توحيد الشعب الفلسطيني	١	١
الاستعداد للتضحية بحياته	٢	١٢
النضالية النشيطة	١٠	٢٠
المشاركة في الكفاح المسلح	١٠	٢٣
كان سجينا سياسيا (او هو)	١	١
التذكير بمعركة الكرامة سنة ١٩٦٨	—	١
التذكير بعملية الطائرة الشراعية سنة ١٩٨٧	—	٣
الاحالة الى العَلَمْ	—	٢
الاحالة الى الانتفاضة	١	١
يقذف حجارة	٢	١

وعي الاستلاب	٤	٩
تحليل سياسي	٣	٨
يطلب صراحة إنشاء دولة	١	٢
يعرب عن ثقته بنهاية قريبة	١	٢
يضيف شعارا، او اغنية	–	٢

والواقع أننا إذا استرجعنا تفاصيل الإشارات التي تبرز وطنية ونضالية المثل التي اختارها المراهقون، فاننا نجد أنفسنا إزاء مثال أعلى جماعي يذكرنا كثيرا بذلك الذي وصفه مراهقو تل الزعتر سنة ١٩٧٥؛ انه رجل راشد، يتميز بشعوره بالانتماء الى الشعب الفلسطيني ويشعوره بالتضامن معه، كما يتميز بنضاليته النشيطة ووعيه السياسي وثقته بمستقبل يعيد حقوق هذا الشعب اليه. كما ان صبيين عمدا الى إضافة «خارجة عن الموضوع» في أسفل النص هي عبارات مأخوذة من أناشيد وطنية.

ولقد سألنا أنفسنا، قبل أن نقرأ إجابات الصبيان والفتيات، عما إذا كان أحداثٌ في الخامسة عشرة من العمر لا يحلمون جميعا بأن يشبهوا «صانعي» الانتفاضة (الذين هم بين ظهرانيهم)، اي هؤلاء الشبان الذين يقذفون الحجارة ويشعلون العجلات ويضعون الأعلام الفلسطينية على أسلاك الكهرباء... غير ان الواقع هو ان الرجوع الى السياق الحالي للانتفاضة نادر: فليس سوى صبي واحد وفتاة واحدة يوردان كلمة الانتفاضة في إجابتيهما، وليس ثمة سوى فتاة واحدة وصبيين لديهم مثال أعلى يرمي الجنود الاسرائيليين بالحجارة. لكن المراجع التي يُرجع المراهقون اليها ضمنا، و«المشروع» الذي يتبنونه، هما أوسع من ذلك كثيرا. والمراحل الأخرى الكبرى من النضال مدرجة في المشروع، ومتكاملة معه بحيث أننا نجد إحالة ورجوعا الى معركة الكرامة (٢١ آذار/مارس ١٩٦٨، حين هاجم الجيش الاسرائيلي المقر العسكري العام لحركة فتح في الكرامة بالأردن؛ وكانت تلك أول مرة يواجه الفدائيون فيها الجيش الاسرائيلي مباشرة بحيث ان مهابتهم خرجت معززة

مرتفعة). وهناك إحالة او رجوع مرات ثلاث الى عملية الطائرة الشراعية (التي قام مغاوير فلسطينيون بها في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧ في الجليل الأعلى، منطلقين من الجنوب اللبناني بطائرة شراعية، وأفضت الى مقتل ستة جنود اسرائيليين وجرح سبعة آخرين). غير ان التسيُّس هنا ليس صبغة سطحية، ذلك بأن لبواعث التمرد جذورا عميقة يجري الاعراب عنها، كما سنلاحظ ذلك بعد حين لدى إعادة نقل بعض من الأجوبة.

وقد أتاح لنا التحليل الوصفي للاجابات ان نفهم المزيد عن نُظُم القيم التي تعبىء مراهقينا وتمثل اللحمة والسدى في بناء مثلهم، وبالتالي خططهم المستقبلية. غير أنه يظل علينا العودة الى الدور الذي يقوم بعض المتغيرات به، والذي شعرنا به طوال عملية فرز «المعالجات الانشائية». فاذا كانت الوطنية والنضالية قطبين معبئين للمراهقين، أفترى الفتيات والصبيان يعيشونها بالطريقة ذاتها؟ ثم أتراهم يعيشونها على النحو نفسه حين يكون انتماؤهم الى وسط اجتماعي ــ ثقافي معوز، او الى وسط متوسط الحال؟ او حين يرتادون مدرسة تابعة للأونروا او مدرسة خاصة؟ او حين يكون أهلوهم لاجئين او غير لاجئين؟ تلك هي الأسئلة التي ينبغي لنا الآن محاولة الاجابة عنها.

كان يتبين لنا ونحن نفرز «المعالجات الإنشائية»، أولا بأول، ان النضالية تعرب عن نفسها في العديد من الفئات والمقولات التي استخدمناها (فمثلا النمط المثالي ــ إطار في منظمة التحرير الفلسطينية، فدائي. . . ــ، التسلية والهوايات ــ التدريب العسكري، التظاهرات. . . ــ، معايير السلوك). وهكذا فاننا حاولنا إنشاء مؤشر تسييس، مؤشر لا يدّعي البتة انه مقياس مطلق وإنما نقطة ــ مَعْلَم عملية ذات حدود معروفة. والفئات والمقولات التي تعرب عن تعبئة مراهقينا كفلسطينيين، من جميع الفئات والمقولات المستخدمة لدى فرز المعالجات الانشائية، هي التالية:

الجدول رقم (١٧)

إنشاء مؤشر تسيّس

الفئة	الرائز	المقدار (مجموع النقاط)
نمط المثال الأعلى	٨ روائز تمثل في الجدول رقم (١٣) (وجوه ترمز الى الكفاح الوطني)	٣٠
التسلية والهواية	٧ روائز تمثل في الجدول رقم (١٤) (الهوايات والتسليات الملتزمة)	حد أعلى ٧ نقطة لكل رائز
معـايير	١٧ رائزا تمثل في الجدول رقم (١٦) (معايير «نضالية / امة، وطن»)	حد أعلى ١٧ نقطة واحدة لكل رائز

ان إنشاء مثل هذا المؤشر يثير عدة مشكلات حاولنا حلها بالطريقة التالية:

ــ من البديهي ان امتلاك مثال أعلى، من نمط او نوع فدائي او إطار في منظمة التحرير الفلسطينية، يجب أن يحظى بمراجحة وتصحيح يصلان الى الحد الأعلى لأن هذا المثال هو نواة المعالجة الانشائية كلها (مما يضفي على كامل المعالجة الانشائية صبغة سياسية).

ــ بدا لنا، كذلك، ان مجموع نقاط المثال الأعلى يجب ان يكون على الأقل مساويا لمجموع بقية الروائز (الهواية والتسلية وقواعد وأو معايير السلوك)، لأن أيا منها لا يستطيع ان يشكل بمفرده الموضوعة الرئيسية للمعالجة الانشائية (اي للاجابة المستفيضة المكتوبة على الاستمارة). وهذه الطريقة تجنبنا مسألة ان يصبح مؤشرنا مؤشر قياس، لا للتعبير عن التعبئة فحسب بل أيضا للافاضة في المعالجة الانشائية: وإذ اختار البعض كمثال أعلى لهم مثالا من نمط إطار في منظمة التحرير الفلسطينية او فدائي، فانهم لم يفضلوا قيم مثلهم العليا معتبرين، ولا ريب، ان هذه القيم بديهية بالنظر الى ان الأمر يتعلق بفدائي.

ــ وأخيرا، فاننا إذا ما نظرنا الآن الى مجموع الروائز الأخرى فاننا

نشعر، في مرحلة أولى، بضرورة مراجحة (pondération) كـل واحد منها. غير أننا اصطدمنا بمشكلة تعصى على الحل، هي مشكلة تقريـر المراجحـات النسبية. إذ كيف يمكن ان نعلم واقعا ما إذا كانت موضوعة التضحية بالحياة او بذلها من أجل فلسطين، ليست صورة معادة وكلاما يطلق على عواهنه، وما إذا كان لهذا الرائز وزن أكبر من وزن «حب الوطن»؟ وكي نتجنب مثل هذا التصنيف الذي لا يمكن إلا ان يكون ذاتيا، فاننا قررنا ان نولي مجموع نقاط وحيدا لكل رائز تسيّسٍ حاضر في معالجة إنشائية، وكائنا ما كان هذا الرائز.

وعلى هذا، فاننا اعتمدنا المراجحة التالية: ٣٠ نقطة إذا كان الموضوع موضوع وجه يرمز الى الكفاح الوطني للشعب الفلسطيني، ونقطة واحدة لكل رائز تسيّس حاضر آخر. وتتوزع المؤشرات الحاصلة بين صفـر وأربعين. وهكذا، فان المؤشر المتوسط كان ٧,٩٥ للفتيات و١٩,٤٣ للصبيان. وهناك خمس فتيات وصبـي واحد كان مؤشرهم صفرا.

وعلى هذا، فان الملاحظة الأولى التي تفرض نفسها هي ان الصبيان يمتلكون، على وجه العموم، مؤشرا أعلى من مؤشر الفتيات.

ولعل هذه النتيجة لا تدهش القارىء ولا ريب؛ ذلك بأن في وسـع المرء ان يتصور ويسهولة ان المراهقين الصبيان معنيون أكثر من الفتيات بالوطنية والنضال، مثلما ان الرجال معنيون أكثر من النساء بهذه الأمور، وخصوصا في مجتمـع تقليدي لا تزال المرأة محصورة فيه في وسط المهمات المنزلية والعائلية الضيق.

غير ان تأويل هذه الأرقام ليس بديهيا، وخصوصا عندما نقابلها بالأرقام التي حصلنا عليها مـع مراهقي تل الزعتر سنة ١٩٧٥. والمقابلة الحرفيـة للأرقام ليست ممكنة لأن مؤشرات التسيّس محسوبة على أساس منظار تفسيري للفـرز ينبغي له ان يتكيف وفقـا لمحتوى المعـالجة الانشـائيـة (وهكـذا، فان مؤشرات تل الزعتر المحسوبة وفقا للمبدأ ذاته ولكن بفئات مختلفة، تتراوح

بين صفر و ١٦). غير ان مقابلة الخلاصات تظل غنية بالمعلومات؛ فقد لاحظنا يومها:

«ان المؤشر المتوسط هو ٦,٣٠ للفتيات و ٢,٥٢ للصبيان. . . وإذا اعتبرنا الاشارات الموضوعية للتعبئة، والسلوك الخارجي، فان الصبيان يبدون أكثر التزاما بمناخ التعبئة العامة: انهم أكثر تسيّسا، بمعنى انهم أكثر قراءة للصحف، وأكثر إلماما بالسياسة الداخلية اللبنانية، ويتمتعون بثقافة سياسية أعلى من ثقافة البنات. ولسنا، من جهة اخرى، بحاجة الى الرجوع الى دراستنا لملاحظة ان نسبة الفتيات الملتزمات التزاما نشيطا في منظمات المقاومة هي ضئيلة قياسا بنسبة الصبيان. بيد أننا إذا ما أخذنا المواقف العميقة بعين الاعتبار، والتسيّس والنضالية بمعناهما الواسع (كما فعلنا في معظم الأحيان في دراستنا)، فاننا نلاحظ ان تسيّس الفتيات ونضاليتهن هما بمثل حدة تسيّس الصبيان ونضاليتهم، وربما اشد قليلا. فقد اختارت الفتيات، في المعالجة الانشائية، مثلا عليا ملتزمة بالثورة الفلسطينية أكثر مما اختار الصبيان. كما انهن استنبطن القيم الوطنية والنضالية أكثر مما فعل الصبيان. . . وقد قدر لنا ان نرى ان نضالية الفتيات نضالية ترتبط ارتباطا وثيقا بكفاح اوسع هو كفاح الفتاة الفلسطينية من أجل تحررها من الصورة الجامدة المنمطة، صورة المرأة «الكائن ــ بلا ــ حقوق».[(١٣)]

كيف نستطيع ان نفهم هذا التفاوت في النتائج وعدم تساوقها؟ إننا، بطبيعة الحال، لا نملك أكثر من طرح فرضيات. غير انه يبدو لنا ان لا بد من إرجاع هذا الفارق الى اختلال مرده عراقة او «قِدَم» منظمة ثورية. فعمل المقاومة في وضح النهار داخل المخيمات في لبنان، بدأ نحو سنة ١٩٦٨؛ وبعد ذلك بسبعة أعوام، كان ثمة علائق اجتماعية جديدة قد قامت عفوا في المخيمات نتيجة وجود المقاومة: علائق اجتماعية جديدة أظهرت للمرأة ان طريق تحررها هي طريق موازية لطريق تحرير فلسطين. وقد وجدنا السياق ذاته

---

(١٣) Sylvie Mansour, *op. cit.*, pp. 115, 244-245.

في حالة انطلاق بالنسبة الى المراهقين الذين التقيناهم في أريحا ورام الله؛ فالفتيات لم يعدن يقنعن بدورهن التقليدي. لكن السياق المتسارع هذا لم يكن عمره قد بلغ في تموز/يوليو سوى عشرة اشهر. فحتى لو كان للانتفاضة جذورها القديمة إلا انه يظل من الصحيح ان التغيرات العميقة في المجتمع لا تقع إلا في اللحظة التي يتخذ الكفاح التحرري فيها أشكاله التنظيمية (لجان القرى، والخلايا السياسية، والشبكات ذات الصفات والمهمات المختلفة...). وهذا التطور لا يزال حديثا.

أما المتغير الثاني الذي ينبغي لنا البحث عن تأثيره الممكن، فيكمن في الخصائص الاجتماعية ــ الثقافية لوسط المراهقين. ولهذا، فاننا اخترنا مجموعة من مائة تلميذ غير متجانسين: تلامذة من مخيمات اللاجئين من جهة، وتلاميذ مدرسة خاصة مدينية من جهة اخرى. وقد رأينا أعلاه(١٤) ان في وسعنا صقل هذا التمييز التقريبي على مستويين:

ــ فمن وجهة نظر الوسط الاجتماعي، نستطيع ان نميز ثلاث مجموعات تمتلك كل منها خصائصها وسماتها الخاصة هي: طلاب عين السلطان المتحدرون من الوسط الأكثر إعوازا، حيث يغلب على آبائهم العمل كعمال زراعيين؛ وطلاب عقبة جبر الذين تنخفض نسبة العاملين، كعمال زراعيين، من آبائهم انخفاضا ملحوظا قياسا بنظرائهم في عين السلطان، والذين ينتمون الى بيئة تبدو أقل إعوازا بقليل من بيئة أولئك؛ وأخيرا، طلاب رام الله الذين ينتمون الى بيئة اقرب الى الوسط.

ــ ثم اننا ميّزنا من وجهة نظر أصل العائلات، هنا أيضا، ثلاث مجموعات (باستثناء «من لم يمكن التعرف الى هويتهم») هي: «لاجئو الجيل الثاني»؛ و «لاجئو الجيل الثالث»؛ و «غير اللاجئين» (مع تحفظ بالنسبة الى هذه المجموعة الثالثة كما أسلفنا القول: فعدد «غير اللاجئين» في رام الله

---

(١٤) أنظر أعلاه، ص ٨٢ ــ ٨٨.

هو عدد مضخم بسبب واقعة إعوازنا للمعلومات التي تتيح لنا تمييز لاجئي الجيل الثالث).

ــ لِنَرَ إذاً، بادىء ذي بدء، التعليقات التي نستطيع القيام بها لدى مقارنة المجموعات الثلاث المنتمية الى وسط اجتماعي مختلف.

الجدول رقم (١٨)
توزع مؤشرات التسيُّس الوسطى تبعا للوسط الاجتماعي

عين السلطان			عقبة جبر			رام الله		
فتيات	صبيان	مجموع	فتيات	صبيان	مجموع	فتيات	صبيان	مجموع
٦,٣٦	١٧,٩٥	١٢,٤١	٢٦,٨٣	٣١,١٥	٣٠,١٢	٢,٣٥	٦,٩٣	٤,٧٢

نستطيع القول، بصورة عامة، ان المراهقين في عقبة جبر هم أكثر المعنيين من الطلبة بالوطنية والنضالية، ثم يأتي بعدهم طلبة عين السلطان، وأخيرا طلبة رام الله. ولهذا، فان المعدل الوسطي لتسيّس الفتيات، الأكثر اقترابا من معدل زملائهم الصبيان، هو معدل مراهقات عقبة جبر بالذات. وينبغي لنا ألا ننسى، ونحن نتدبر هذه النتائج، ما نحن في صدد قياسه: انه مجرد مؤشر لا «علامة» موضوعية على النضالية تزجى لمراهقين!

أفيتفسر الفارق المهم الذي وجدناه بين عقبة جبر وعين السلطان بالفارق في الوسط الاجتماعي (وسط أقل حظوة وبالتالي أقل علما وتربية، وبالتالي أدنى تسيّسا، وسط عمال زراعيين غالبا ما يتم وصفهم في المجتمعات كافة بأنهم أقل تسيّسا؟)، ام بالتوزع المختلف لأصول الأهل؟

نصل هنا الى المتغير الثاني. فجميع أهالي مراهقي عقبة جبر (باستثناء اثنين) عاشوا تهجير سنة ١٩٤٨، في حين ان أغلبية يسيرة من أهالي مراهقي عين السلطان ولدت في منطقة أريحا (الأجداد عاشوا المنفى). فاذا ما أدخلنا هذه المتغيرة داخل مجموعة مراهقي عين السلطان ومجموعة رام الله، حصلنا على النتائج التالية:

الجدول رقم (١٩)

توزع مؤشرات التسيّس الوسطى تبعا لأصل الأهل

عين السلطان		رام الله	
أهل لاجئون من الجيل الأول	أهل لاجئون من الجيل الثاني	أهل لاجئون من الجيل الأول	أهل غير لاجئين
١٥,٣٣	١١,٧٩	٧,١٣	٤,٨٤

تبدو هذه النتائج أنها تؤكد ان المؤشر الذي حصلنا عليه من الاجابات في المعالجة الانشائية هو ارفع لدى المراهقين المتحدرين من عائلات لاجئين منه لدى المراهقين الذين لم تعرف عائلاتهم التهجير، وأن المؤشر لدى مراهقي العائلات اللاجئة ينحو ويميل الى الارتفاع لدى المراهقين المتحدرين من عائلات لاجئين من الجيل الثاني (قياسا بلاجئي الجيل الثالث).

ولا بد، مرة اخرى، من اخذ هذه التحليلات للمناحي والنزعات بترو، نظرا الى حجم العيِّنة المأخوذة. وحري بالتذكير، كذلك، بأن بعض المراهقين ربما كبحوا حماستهم النضالية في إجاباتهم لجهلهم الجهة التي قد تقع هذه النصوص بين يديها. وفي اية حال، فانه يظل ان الوطنية الفلسطينية قد اعربت عن نفسها، بصورة او بأخرى، في ٩٦ استمارة من أصل مائة.

وقبل أن ننتقل الى عرض محتوى استمارة الهوية التي سيجيب مراهقونا عن الأسئلة الواردة فيها (وهو محتوى ربما أفضى بنا الى صقل الخلاصات او التأويلات التي قمنا بها حتى الآن انطلاقا من المواد التي نملكها)، فاننا تنخبنا بضعة نصوص من الاجابات إشهادا على مقالاتنا وتمثيلا عليها. وقد أضفنا الجواب عن سؤال من أنا الذي سوف نتحدث عنه بعد ذلك مباشرة.

صبحي

مدرسة عين السلطان

ولد سنة ١٩٧٤

أصل أهله من قرية المسمية (لاجئون من الجيل الأول)
مهنة الأب: مستخدم في الأونروا

احب ان أتصف في الشهيد ابو جهاد، هو المخطط العسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية. ومن مزاياه انه كان محبا لوطنه وخدوما لأرض فلسطين ولصالح الشعب الفلسطيني، وكان مظهره الخارجي غير مهم بالنسبة اليّ. مهنته هي قائد جيش التحرير الفلسطيني، ونائب ابو عمار. عمله يقوم بتخطيطات عسكرية. يمضي أوقات فراغه في عمل تخطيطات. اني وصفت شخصا حقيقيا، وهو الشهيد ابو جهاد.

من أنا؟
١ ــ أنا طالب علم.
٢ ــ أنا طالب حرية.
٣ ــ أنا طالب دولة فلسطينية.

فتاة
مدرسة عين السلطان
ولدت سنة ١٩٧٤
أصل أهلها من منطقة أريحا (لاجئون من الجيل الثاني)
مهنة الأب: مزارع

الشخص الذي ارغب في ان اتشبهه رجل. وهذا الشخص كريم، أخلاقه حميدة يتصف بكل الصفات الخلقية الجيدة. صفاته: كريم يحب الخير للناس. لا يريد الشر للناس ولا لأي مخلوق من البشر. مظهره (الخارجي)، هو شخص انيق، يحب ان يكون كشامة بين الناس؛ وجهه مستدير ويلبس كوفية على رأسه. مهنته مزارع، ويمضي وقت فراغه في عمل الخير والعمل في ارضه.

اني اتشبه بشخص حقيقي.

من أنا؟

١ ــ أنا طالبة.

٢ ــ إيمان (اسم).

٣ ــ مزارعة.

صبحي

مدرسة عين السلطان

ولد سنة ١٩٧٣

أصل أهله من منطقة أريحا (لاجئون من الجيل الثاني)

مهنة الأب: تاجر

ارغب في التشبه بالشخص الطويل القامة، جميل المظهر، شجاع وشهم يدافع عن وطنه وتراب ارضه، وعن شرفه وعرضه وماله. يكون هذا الشخص رجلا قويا، حقيقيا لا خياليا.

التفاصيل عن هذا الشخص: يعيش هذا الشخص على تراب فلسطين، يعيش من أجل طرد الكيان الصهيوني من فلسطين، ومن أجل حب الخير ومساعدة الناس والاحترام والخلق الرفيع، ومن أجل رفع كلمة الله العليا.

مظهره: قوي الشخصية، له قيمة في المجتمع، خلوق رحيم لا يقبل العار، لا يرتاح في نومه والكيان الصهيوني يمرح ويسرح على ارض فلسطين.

مهنته: يناضل ويحارب ويجاهد من أجل تحرير البلاد من اسرائيل.

من أنا؟

١ ــ أنا طالب في جامعة بير زيت.

٢ ــ أنا شاب فلسطيني.

٣ ــ أنا عامل على أرض فلسطين.

فتاة

مدرسة عين السلطان

ولدت سنة ١٩٧٢
أصل أهلها من الدوايمة (لاجئون من الجيل الأول)

أحب ان اشبه فلسطينية تدافع عن وطنها، تريد حقوقها التي ضاعت من أجدادها. صفاتها: شابة قوية ولطيفة في نفس الوقت، تدافع عن وطنها وشعبها. ومن اهم أعمالها التي قامت بها:

١ ــ الدفاع عن وطنها؛
٢ ــ الدفاع عن شعبها وحقوقه؛
٣ ــ رمي الحجارة وغيرها وغيرها.

مظهر الشخص الذي اشبهه: جميل ومحزن في نفس الوقت. والسبب في ذلك أعماله التي يقوم بها، يمضي أكثر أوقاته في مواجهة اليهود القذرين.

من أنا؟

١ ــ أنا طالبة ممرضة أحب مهنتي كثيرا.
٢ ــ أنا شخصية مثل الشخصية التي ذكرت ما هي.. احب هذه الشخصية كثيرا.
٣ ــ أنا طالبة في السنة الثانوية الثانية. احب أساتذتي وأحترمهم.

صبحي
مدرسة عين السلطان
ولد سنة ١٩٧٢
أصل أهله من النقب (لاجئون من الجيل الأول)
مهنة الأب: مزارع

أبو جهاد، وهو نائب ابو عمار. وقد كان قائد العمليات العسكرية حقيقيا. وقد كان ابو عمار وأبو جهاد وأبو إياد أشخاصا يصعب اختراقهم في الأيام السابقة. كان قويا وراغبا في مواصلة الجهاد العسكري، ومهنته في المنظمة نائب لأبو عمار. كانت كل عملية يخوضها هو. وهو الذي أدخل خلايا كثيرة الى الضفة والقطاع. أدخل الى اسرائيل خلايا مسلحة ضد

الصهيونية. وقد خاض عملية الطائرة الشراعية وعملية النقب، ولهذا فانه كان مستهدفا. استشهد ابو جهاد في تونس خلال عملية قام بها الصهاينة مع أيادي الخونة من العرب. لكن مهما فعلوا وقتلوا فانهم سوف يرحلون من هذه البلاد بفضل الشعب الفلسطيني.

(ثم يلي ذلك نص أنشودة كاملة في مديح ابو جهاد ومغاوير الطائرة الشراعية، ثم نص أنشودة «الأشبال» ــ منظمة شبيبة فتح شبه العسكرية.)

من أنا؟

١ ــ أنا مناضل اعتقل ١٨ يوما في الفارعة، ذوّقوه العذاب.

٢ ــ أنا شبل الثورة.

٣ ــ منظم من قبل فتح.

صبي

مدرسة عين السلطان

ولد سنة ١٩٧٤

أصل أهله من منطقة أريحا (لاجئون من الجيل الثاني)

مهنة الأب: شرطي مستقيل

احب ان أكون الجندي المدافع عن وطنه وأستشهد في معركة، وأن يكون لي وطن لا يحكمه جنود الجيش الاسرائيلي، ولتكون دولة فلسطينية حرة، ويكون أبو عمار في هذه البلاد الفلسطينية. وأحب ألا يذهب دم الشهداء هكذا.

إنها قصة حقيقية لا وهمية.

من أنا؟

١ ــ أنا فريد (اسم).

٢ ــ أنا طالب علم..

٣ ــ أنا جندي.

فتاة

مدرسة عين السلطان

ولدت سنة ١٩٧٢

أصل أهلها غير مقروء

مهنة الأب: مزارع

شخص ينظر اليّ دائما وأعجب به. اني معجبة به، وهو جميل. مهنته سائق، وهو شخص حقيقي وليس من الضروري ان اذكر اسمه.

من أنا؟

١ ــ أنا طالبة في مدرسة عين السلطان.

٢ ــ ارغب في ان أكون مُدرِّسة.

٣ ــ أنا مواطنة من أريحا.

صبي

مدرسة عين السلطان

ولد سنة ١٩٧٤

أصل أهله من منطقة أريحا (لاجئون من الجيل الثاني)

مهنة الأب: مزارع

أرغب ان أكون مزارعا. وأرغب ان احرث الأرض وأن أسقي بستاني وأعشبه كل صباح، وآكل من ثمر بستاني ومن عرق جبيني. احب ان أكون مزارعا مخلصا لوطني ولأرضي ولبستاني وللطيور التي تطير من شجرة الى شجرة.

انه وصف خيالي.

من أنا؟

١ ــ أنا هاوي أغاني.

٢ ــ أنا طالب.

٣ ــ أنا طالب رياضي ودراسي.

فتاة

مدرسة عقبة جبر

ولدت سنة ١٩٧٣
أصل أهلها من دير ديوان (لاجئون من الجيل الأول)
مهنة الأب: متوفى

احب ان أكون فدائية، وأن نكون أحرارا في ديارنا. إننا نطالب بالحرية لأنهم أخذوا أرضنا، ودمروا منازلنا، ونمضي معظم حياتنا تحت الأرض. إننا لا ننام مطمئنين.

احب ان تتحرر فلسطين لكي نكون أحرارا. ليس لديهم سوى السلاح، ولولا السلاح لما كنا هكذا بلا وطن ولا أرض! نحن نحب ان نكون فلسطينيين، وكل إنسان يتمنى ان يكون فلسطينيا. وبإذن الله، فان الوطن سيعود وسترجع فلسطين. احب ان أكون شجاعة وقوية. انهم أخرجونا من ديارنا واحتلوا الأرض والوطن. فلا بد ان ترجع فلسطين. عاش الوطن. اريد ان أكون حرة في بلدي.

إنها قصة حقيقية.

من أنا؟

١ ــ أنا ضائعة بلا وطني. ان العدو أخذ أرضنا، ونحن لا ننام خوفا؛ لكننا سنعود.
٢ ــ أنا بنت شجاعة وقوية، حرة مؤمنة بأن وطني لن يضيع. فلسطين ستعود لنا.
٣ ــ أنا ضائعة بلا وطن وبلا أرض، لكن فلسطين ستعود بإذن الله.

صبحي
مدرسة عقبة جبر
ولد سنة ١٩٧٤
أصل أهله من الرملة (لاجئون من الجيل الأول)
مهنة الأب: سمسار

احب ان اصبح كإنسان وهب حياته كلها لوطنه، مطالبا بالحرية...

الحرية الضائعة. وأريد ان أحمل السلاح وأحارب. . . أحارب الاستعمار البغيض. أطالب بالعيش الجيد شأن كافة الشعوب الأخرى. لا اريد ان اسمع كلمة «يهودي»، ليس لأنه يهودي بل لأنه اغتصب أرضنا وهدم بيوتنا فوقنا. كل هذا فعله من أجل خيرات بلادنا. قتل أطفالنا وسلب حقوقنا. أطالب، أطالب بحق سلبه الاستعمار. احب ان اصبح إنسانا يدافع عن حقه، ولا شيء غير ذلك، حتى تحرير أرضنا. هذا الشخص الذي احب ان اشبهه لا يشغله مظهره عن قضيته حتى قال الاستعمار عنه انه رجل جاهل لا يهتم بنفسه. حتى أوقات فراغه يمضيها في التخطيط لتحرير بلاده وحق تقرير المصير. اني ادعو كل إنسان في العالم ان ينظر للوضع في بلادنا نظرة إنسان يعرف قدر الوطن. العدو في بلادي يسجن ويقتل ويجرح جماعة. احب ان ارمي حجرا بعد حجر حتى تصبح الحجارة مدفعا وتدمر كل أساليب العدو الاجرامية. هذا العدو بدأ بالتشويش على الصوت الممثل لقضيتنا في العالم. ان هذا العدو لا يعترف بقرارات مجلس الأمن، ولا يقبل إلا بالأرض. احب ان اصبح معلما مثقفا لشعبي لكي يعرف ما هو وطنه؛ الوطن الذي تخلت عنه امته. حتى البلاد الاسلامية لم تدافع عن المسجد الأقصى. الأقصى الذي دنسه اليهود. هذا الانسان حقيقي، رجل بمعنى الكلمة ولا يزال حيا حتى تحرير ارضه.

من أنا؟

١ ــ أنا واهب نفسي لأرضي. . لأرضي.
٢ ــ أنا فدائي يدافع عن حق بلاده المسلوبة.
٣ ــ أنا معلم مثقف لشعبنا، ليعرف شعبنا حقه المغتصب، حتى أموت.

صبحي
مدرسة عقبة جبر
ولد سنة ١٩٧٢
أصل أهله من العباسية (لاجئون من الجيل الأول)

١

مهنة الأب: بلا عمل

احب ان أكون مواطنا شجاعا وأحمل السلاح لكي أدافع عن وطني. نريد الحرية. وأحب ان تكون راية الحرية مرفوعة على كل بيت، وعلى كل شيء. وأحب ان أكون صبورا وأريد الحرية. نريد ان ترجع لنا حريتنا مثلما كان من قبلنا. وسنظل نقاتل ونحارب حتى ترجع لنا حريتنا، وإن شاء الله سترجع ولم يبق الكثير لذلك. وعندما ترجع لنا حريتنا لن نبتعد عنها مهما كلف الأمر. لكن اليهود هم الذين لا يريدون ذلك. ولكننا سنظل نقاتلهم حتى نرجع الى مواطننا. لكن عين السلطان التي قطعوا عنها الماء والكهرباء وهم يفكرون ان عين السلطان مصنوعة من حديد لا تشرب. لكن ان شاء الله سترجع فلسطين، وسنظل نقاتل ونحارب حتى ترتفع راية الحق فوق بيوتنا، وحتى لو لم يبق ولا عربي على وجه الدنيا. لكن الله قادر على كل شيء، وصابر لهؤلاء الملاعين.

من أنا؟

١ ــ أنا شاب فلسطيني اريد الحرية.

٢ ــ أنا رجل وسأظل رجلا.

٣ ــ أنا اريد حمل السلاح والدفاع عن وطني مهما كلف الأمر.

فتاة

مدرسة عقبة جبر

ولدت سنة ١٩٧٤

أصل أهلها من العباسية (لاجئون من الجيل الأول)

مهنة الأب: مهندس

احب ان اشبه فدائيا يقاتل لأجل الحرية، ويقتل عدو فلسطين. انه متوسط الطول، وهو شخص حقيقي. فلسطين الشجاعة هي الطير الأبيض الذي يرفرف فوق فلسطين.

ملاحظة: فلسطين عربية وتحارب لأجل الحرية. يا جماهير شعبنا البطل،

ثوري من أجل الوطن ومن أجل فلسطين.
من أنا؟
١ ـ أنا فتاة فلسطينية.
٢ ـ أنا فدائية.
٣ ـ أنا أحارب لأجل الحرية.
(رَسْمٌ في أسفل الورقة لقلب تخترقه كلمات: «أحبك يا فلسطين»).

فتاة
مدرسة رام الله
ولدت سنة ١٩٧٢
أصل أهلها من يافا (لاجئون من الجيل الأول)
مهنة الأب: صيانة

الشخص الذي ارغب التشبه به شخص متعلم واعي لما يحصل حوله. إذا صادف مشكلة حلها دائما بالتفهم وليس بإضافة مشكلات اخرى. أخلاقه رفيعة، ومؤمن بربه. جميل طويل وأنيق. مهنته الكلام عن المسيح. يمضي أوقات فراغه باللعب بكرة السلة والكرة الطائرة.

انه شخص حقيقي.

من أنا؟
١ ـ أنا إيفلين. أنا بنت امي وأبـي. أنا مواطنة.
٢ ـ أفكر ان اصبح سكرتيرة.
٣ ـ أنا مؤمنة بربـي.

فتاة
مدرسة رام الله
ولدت سنة ١٩٧٥
أصل أهلها من يافا (لاجئون من الجيل الأول)

مهنة الأب: صاحب مزرعة دجاج

الفتاة التي ارغب في ان أكون مثلها هي امي لأنها أفادتني فعلا أنا وإخوتي من جميع النواحي؛ من العلم والأدب والأخلاق، ومستواها في المجتمع. وأنا أشكر الله لأنه وضعني من جيل الانتفاضة، لأن جيل الانتفاضة هو الجيل الذي أفاد فلسطين والذي سيفيدها في المستقبل ان شاء الله.. وهذه الورقة جاءت في الميعاد المناسب لأننا علمنا بنهاية الحرب بين العراق وإيران، وهذا يفرحني كثيرا، وقد جعلني أستطيع الكتابة. احب ان أكون في المستقبل ضابطة في جيش فلسطين الذي سيكون في المستقبل. وهذه رغبتي وأنا صغيرة.

من أنا؟

١ ـ أنا فتاة في الثالثة عشرة، اذهب الى المدرسة في الصف الاعدادي الثاني.

٢ ـ أنا من جيل الانتفاضة، جيل المستقبل.

٣ ـ اعيش مع ابي وإخوتي، وأرجو ان افيد المجتمع في المستقبل من علمي.

صبحي

مدرسة رام الله

ولد سنة ١٩٧٥

أصل أهله من اللد (لاجئون من الجيل الأول)

مهنة الأب: بنّاء

احب ان اشبه رجلا ممتلئا بالحماس والأخلاق الحميدة. هدفه ان يفيد الشعب الفلسطيني في اي طريقة ممكنة. انه متعلم، ومعه أعلى الشهادات، وما زال يريد ان يتعلم أكثر فأكثر. هو رجل قصير مليء بالعلم. عمره ٣٠ سنة وهو أكبر من معلم. يمضي أوقاته في العلم يدرس ويحفظ. يساعد الناس ويتعب ويشقى حتى يعطي الناس المعلومات الكافية ليعيشوا بهناء. انه لطيف وعاقل، ويعلّم حتى عندما يكون مريضا. انه نشيط. مستواه كبير جدا،

ولا يقول ذلك. انه غير متكبر وشخصية مستقلة بحد ذاتها.
من أنا؟

١ ــ أنا طالب في مدرسة رام الله في الصف الثاني الاعدادي لأكمل دراستي.
٢ ــ أنا طالب مجتهد في دروسي. المظاهر الخارجية لا تهمني في الحياة بل المظاهر الداخلية.
٣ ــ أتمنى ان يتحرر شعبي من الحكم اليهودي الاسرائيلي.

فتـاة
مدرسة رام الله
ولدت سنة ١٩٧٤
أصل أهلها من رام الله (غير لاجئين)
مهنة الأب: متوفى

احب ان اشبه اي شخص يحاول الدفاع عن وطنه وأمته، ويحارب قوى الشر التي تقف في وجه امته. لا يهم ان يكون رجلا ام امرأة لأن الانسان عندما يدافع عن وطنه لا يهم الجنس. يجمـع هذا الشخص عدة صفات منها الاخلاص لوطنه وحبه لأمته، ويتكلم عن الحق. لا يهاب اي شيء يقف في وجهه. هذا الشخص له عدة نشاطات وطنية ثقافية ادبية. وهو مواطن عادي مثل كل الناس، متعلم ومثقف يحاول نشر الوعي العلمي بين الناس. انه جميل وأنيق وطالب في الطب، ويمضي أوقات فراغه بين الناس في النادي.
من أنا؟

١ ــ أنا فتاة احب بلادي فلسطين، وأحاول الدفاع عن كرامة شعبي التي سرقت منه، وحريته التي يحاول الحصول عليها.
٢ ــ أنا فتاة لي طموحاتي في الحياة الكريمة في دولتي، وأتعلم لكي أخدمها وأرفـع مستواها العلمي والثقافي.
٣ ــ أنا فلسطينية عربية تريد الحياة والرفاه لشعبها ووطنها، وتريد ان

تكون كلمة الحق والعدل فوق كل العالم من أجل وطنها.

صبحي
مدرسة رام الله
ولد سنة ١٩٧٥
أصل أهله من القدس (غير لاجئين)
مهنة الأب: تاجر

احب ان اشبه الحبيب ابو عمار، ممثل الشعب الفلسطيني وقائد منظمة التحرير الفلسطينية. الكل يعرف صفات هذا الشخص المناضل الحبيب الذي لا يتذلل لأي من المضايقات الخارجية.

من أنا؟

١ ـ أنا الطالب المناضل، حبيب وطني وأرضي.
٢ ـ أنا ناصب الكمائن للدوريات الصهيونية، ورافع الأعلام في المظاهرات.
٣ ـ أنا شهيد ارضي ووطني وشرفي دفاعا عن ارضي وحريتي.

خامسا: المن ـ أنا

فلنعد الآن الى فرز «المن ـ أنا؟» الذي سوف يتيح لنا ان نمسك، بصورة مباشرة أكثر، بكيفية تحديد هؤلاء المراهقين لأنفسهم، وتعريفهم لذواتهم في الحاضر.

ولنسجل، باديء ذي بدء، ان لدينا هذه المرة ٩٧ استمارة هوية، اذ تنقصنا في الواقع أوراق صبيين وفتاة من عين السلطان.

ولنذكر، فيما عنى معالجة المعلومات في هذا الاختبار، بأننا طلبنا من المراهقين ان يجيبوا عن سؤال «من أنا؟» ثلاث مرات، مما يعني انه ستكون لدينا ثلاثة مستويات من الأجوبة. ثم إننا، من جهة اخرى، ميزنا في الاصطلاح الخاص بالعلامات والترميز قسمين لكل مستوى من مستويات الأجوبة.

١ ــ إحصاء التأكيدات الأساسية او القاعدية التي تتكون، بصورة عامة، من صيغ مبتسرة تستهل بـ «أنا».

مثلا: أنا طالب.
أنا عربي.
أنا مسلم فلسطيني.
أنا «شبل الثورة»...

٢ ــ تأليف وتجميع الشروحات التفسيرية في عدد من الموضوعات التفسيرية.

مثلا: شعور الاستلاب الحالي.
حب الوطن.
الوضع المدرسي...

وسنبدأ بالتحليل الوصفي للتأكيدات الأساسية او القاعدية، ولهذا فاننا سنميز بادئا التأكيدات القاعدية التي تُرجع الى الهوية الفردية، وتلك التي ترجع الى تعريف وتحديد هويةٍ جماعية، وتتراوح الأجوبة بين هذين القطبين (اي، بصورة عامة، بين «أنا زيد»، و«أنا ابن فلسطين»).

الجدول رقم (٢٠)
توزع التأكيدات الأساسية للقطب الفردي للهوية
(لمستويات الإجابة الثلاثة مجتمعة، وتبعا للمدرسة والجنس)

	عين السلطان		عقبة جبر		رام الله		المجموع
	بنات	صبيان	بنات	صبيان	بنات	صبيان	
أنــا:							
«الاسم»	٨	٤	ـــ	ـــ	٣	٤	١٩
«الاسم + الشهرة»	٢	٢	ـــ	ـــ	ـــ	ـــ	٤
طــالب	١٦	١١	ـــ	١	٩	٧	٤٤
مسلم	ـــ	١	ـــ	ـــ	ـــ	ـــ	١
مزارع	٢	٤	ـــ	ـــ	ـــ	ـــ	٦

صبي / فتاة	٤	١	–	١	٣	٣	١٢
تلميذة تمريض	١	–	–	–	–	–	١
ابن / ابنة فلاح	١	–	–	–	–	–	١
إنســان	٣	–	–	٤	–	–	٧
فتاة شجاعة / قوية	–	–	٢	٢	–	–	٤

في مستويات الاجابة الثلاثة جميعها، وفي المدارس الثلاث كلها، اختار المراهقون انفسهم (بناتا وصبيانا) بين التأكيدات القاعدية الأساسية لقطب الهوية، وضعهم كتلاميذ او كطلاب، بخاصة، ثم جاء بعد ذلك تحديد الهوية بالاسم ثم بالجنس.

ونلاحظ ان فتاتين وصبيين من عين السلطان عرّفوا انفسهم باسمهم وشهرتهم، اي اسم العائلة. ويجب ان نذكّر هنا بأنه جرى توزيع استمارة التحرير او المعالجة الانشائية واستمارة الهوية معا على الطلاب، وأنهم عملوا اولا على تحرير (الأنا المثالي) على ورقة أولى فيها خانة للاسم والشهرة. لكن الأستاذ الذي قدم اليهم الاستمارات طلب منهم ان يتجاهلوا هذا السؤال باعتبار ان التعليمات كانت تتطلب من الطالب ان يوضح في هذا الحيز ما إذا كان صبيا او فتاة ليس إلا. وقد تقرر هذا الأمر لأسباب امنية (خشية إمكان مصادرة الوثائق على حاجز للجيش او في المطار) ولوضع الطلاب في جو مريح من الكتمان والإغفال. ويبدو ان الأوضاع والشروط الأمنية لم تتدخل إلا قليلا في ردات فعل المراهقين: فهم لم يكتموا نضاليتهم ولا ترددوا في ملء طلبات الاستعلامات حول أشخاصهم (أصل الأهل، ومهنة الأب)، وكثيرا ما مهروا إجاباتهم بأسمائهم وحتى بأسمائهم كاملة. بل ان بعضا منهم ذهب، كما رأينا أعلاه وكما سنرى أدناه، الى حد ادعاء الانتماء الى حركة مقاومة منظمة او الى الإلماح الى الأعمال التي يقومون بها في التظاهرات. وعندما نعرف قسوة سياسة القمع التي يمارسها الجيش الاسرائيلي في ميدان الإعراب عن الوطنية الفلسطينية، نفهم تردد المسؤولين التربويين في إعطاء الضوء الأخضر لمشروع

دراسة المراهقين ـ حتى لو كانت دراسة نفسانية ـ ونتقبله ونوافق عليه.

ثمة تأكيد أساسي يتردد في عدد غير قليل من الملفات (٧) يجتذب الانتباه: «أنا إنسان». فهذه «المطالبة» بصفة «الكائن الانساني» كثيرا ما ترصع خطاب الفلسطينيين الذين نلتقيهم في الضفة الغربية وغزة. فهي، بادئا، التعبير عن تمرد إزاء معاملة حالية يعيشها هؤلاء كمعاملة غير إنسانية من جانب جنود الجيش الاسرائيلي، كما عبر عن ذلك احد المراهقين في إجابة أوردناها قبلا (صفحة ١٢٥):

«. . . لكن عين السلطان التي قطعوا عنها الماء والكهرباء وهم يفكرون ان عين السلطان مصنوعة من حديد لا تشرب. . . »

وإذا ما نظرنا الى هذا التعبير، على مستوى اعمق، وجدناه تأكيدا فظا لوجود طالما شعر بنفسه مهددا بالسياسة الصهيونية وموضع إنكار منها.

ونجد في «المن أنا؟» النزعات والمناحي التي وجدناها في الاجابات السالفة: إلحاحا أعظم من جانب الفتيات على الوضع المدرسي (التأكيد الأساسي «أنا طالب» يظهر ٢٥ مرة لدى ٤١ فتاة، و ٢٩ مرة لدى ٥٦ صبيا)، وأهمية العلاقة بالأرض في عين السلطان (راجع التأكيدات الأساسية «مزارع» و «ابن / ابنة فلاح»)، والمنزلة الثانوية التي يحتلها الدين في تأكيد الهوية. وأخيرا النسبة المئوية للاشارات الأساسية القاعدية للقطب الفردي او المحور الفردي، محسوبا بالمراهق الواحد، هي أرفع بوضوح في عين السلطان منها في عقبة جبر وفي رام الله.

لننظر الآن في التأكيدات الأساسية القاعدية للقطب او المحور الجماعي للهوية: في هذه التأكيدات كافة يحدد المراهقون انفسهم إما كعرب (في ١٢ تأكيدا) وإما كفلسطينيين (في ٥٨ تأكيدا). ويتم الاعراب عن الهوية الفلسطينية بعدة طرائق: مؤتلفة مع صفة اخرى (طالب فلسطيني، مسلم فلسطيني، عامل على ارض فلسطين، مواطن / شاب / فتاة / صبي فلسطيني)، او وفق صيغة أكثر نضالية او أكثر مجازا (فدائي / مقاتل فلسطيني، شبل الثورة، مناضل في فتح، الدم الفلسطيني، الحرية، ابن فلسطين، شهيد ارضي).

الجدول رقم (٢١)

توزع التأكيدات الأساسية للقطب الجماعي للهوية

(لمستويات الإجابة الثلاثة مجتمعة، وتبعا للمدرسة والجنس)

	عين السلطان		عقبة جبر		رام الله		المجموع
	فتيات	صبيان	فتيات	صبيان	فتيات	صبيان	
أنــا:							
طالب فلسطيني	—	—	—	—	١	١	٢
مواطن / شاب فلسطيني	—	٤	٨	٦	٣	٨	٢٩
عامل على ارض فلسطين	—	١	—	—	—	—	١
فدائي / مقاتل فلسطيني	—	٣	٤	٨	—	٣	١٨
مسلم فلسطيني	—	١	—	—	—	—	١
شبل الثورة الفلسطينية	—	١	—	—	—	—	١
مناضل من فتـح	—	١	—	—	—	—	١
دم فلسطيني	—	—	—	٢	—	—	٢
الحـريــة	—	١	—	—	—	—	١
ابن فلسطين	—	—	—	١	—	—	١
شهيد ارضي	—	—	—	—	—	١	١

حدّد ١٤ من الصبيان و ٢ من الفتيات انفسهم كـ «فدائي» على الأقل على مستوى واحد؛ وبطبيعة الحال، فان هذا التصريح لا يعني بالضرورة التزام هؤلاء الطلاب الحالي وإنما اعتناقهم للرمز الذي يمثله الفدائي. وبين الستة عشر هناك ثلاثة من عين السلطان وعشرة من عقبة جبر وثلاثة من رام الله. ويملك هؤلاء كافة «مؤشرات تسيّس» مرتفعة على مستوى الاجابة على المثال الأعلى للأنا.

ثم ان ٣٧ طالبا استخدموا واحدا، على الأقل، من التأكيدات الأساسية القاعدية للهوية الجماعية (الفلسطينية) على مستوى واحد على الأقل: ٦ صبيان من عين السلطان و١٣ صبيا و ٥ فتيات من عقبة جبر و ٤ فتيات

و ٩ صبيان من رام الله . وعدد الذين يُرجعون الى الهوية الفلسطينية هو العديد الأهم كما سنرى ذلك لاحقا، لأنه ينبغي لنا ان نأخذ بعين الاعتبار كذلك «الموضوعات التفسيرية» المسهبة والتي ترتبط في معظمها بوضع الشعب الفلسطيني.

ولنلاحظ، كي نظل في موضوع تحليل التأكيدات الأساسية، ان أحدا لم يستخدم كلمة «لاجىء» (او تعبير «لاجىء فلسطيني»). ولدينا بعض العناصر التي تتيح المقارنة، وذلك بفضل الدراسات الأخرى التي أمكن القيام بها، والتي تستخدم النوع ذاته من الاستمارات والأسئلة، حتى لو كان تحقيق هذه الدراسات قد جرى في سياقات مختلفة او في مراحل مختلفة من تاريخ الشعب الفلسطيني:

١ ــ اجرى ياسوماسا كورودا (Yasumasa Kuroda) وأليس كورودا (Alice Kuroda) دراسة على ٢٣٤ مراهقا فلسطينيا (تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ١٦ عاما) في الأردن سنة ١٩٧٠، تدور حول التزام هؤلاء الشبان السياسي.[١٥] وقد عرض المؤلفان على أولئك المراهقين جملة أسئلة، بينها سؤال «من أنا» وطلبا منهم ان يجيبوا عنه؟ ولاحظا انهم حددوا انفسهم بوضوح كـ «فلسطينيين» (٥١ ٪)، في حين ان أقل من ٢ ٪ حددوا انفسهم كـ «لاجئين»، بينما قدمت البقية الباقية اجوبة متنوعة مثل: «عربي»، و «طالب»، و «مغوار» (كوماندو).

٢ ــ في الدراسة التي قمنا بها في تل الزعتر سنة ١٩٧٥، استخدم خمسون مراهقا من أصل واحد وخمسين، مرة واحدة على الأقل وعلى مستوى واحد على الأقل، التأكيد الأساسي لسلسلة «الهوية الجماعية الفلسطينية». ويبدو انهم استخدموا صيغا أكثر ابتسارا من اجوبة مراهقي منطقة دراستنا لسنة ١٩٨٨، والذين فضلوا الإسهاب حول هويتهم الفلسطينية في جمل أكثر

---

(١٥) Yasumasa Kuroda, Alice Kuroda, «Personal Political Involvment of Palestinian Youths (a study of political socialization in a revolutionary polity),» *Middle East Forum*, Summer 1971, pp. 51-64.

تعقيدا.[١٦] وقد استخدم مصطلح «لاجىء» يومها، وفي مجمل المستويات الثلاثة، ثلاثة صبيان وفتاة واحدة فقط. فقد كان لهذا المصطلح، إنْ في المخيمات الموجودة في الأردن او في تلك القائمة في لبنان، دلالة تحمل معنى السلبية والارتهان للهيئات الدولية، بحيث ان الفلسطينيين كانوا فخورين سنة ١٩٧٥ بتجاوزهم له (اي لهذا المصطلح الذي هو المصطلح القانوني الذي تستخدمه الدوائر الرسمية). وفي سنة ١٩٨٨، اي مع تصاعد الانتفاضة، وفي الحين الذي بات الفلسطينيون فيه بصدد الحصول على الاعتراف بهم دوليا، فان هذا المصطلح اصبح أكثر تهافتا.

٣ ـ وينبغي لنا ان نشير الى دراسة متأخرة (سنة ١٩٨٨) أجراها هذه المرة في قرية الطيبة في اسرائيل مازن ابو عيطة، ودارت حول ٢٢٠ مراهقا طلب منهم ان يحددوا انفسهم: فقد حدد ٢٧ ٪ منهم انفسهم كعرب فلسطينيين، و٤,٧ ٪ كعرب اسرائيليين، و٥٧,٣ ٪ كفلسطينيين يقيمون في اسرائيل، بينما حدد ١١ ٪ منهم نفسه بديانته.[١٧]

وإذا انتقلنا الآن الى دراسة «الموضوعات التفسيرية»، فاننا نستطيع هنا ان نمايز بين تلك التي تُرجِع الى البعد الفردي للهوية وتلك التي تُرجِع الى البعد النفساني ـ الاجتماعي، الجماعي لها.

(١٦) في الوسع التساؤل عما إذا كان تقديم «المعالجة الانشائية» على «من أنا؟» لم يؤثر في الطلاب في هذه الوجهة، بحيث ان تعريف الهوية تأثر بعض الشيء بوصف الأنا ـ المثالي.

(١٧) مازن أبو عيطة في مجلة «شؤون أكاديمية» ـ نقلا عن: «هآرتس»، ١٩٨٨/٩/٩.

الجدول رقم (٢٢)

توزع الموضوعات التفسيرية للقطب الفردي للهوية

(لمستويات الإجابة الثلاثة مجتمعة، وتبعا للمدرسة والجنس)

	عين السلطان		عقبة جبر		رام الله		المجموع
	بنات	صبيان	بنات	صبيان	بنات	صبيان	
تعبير عن الفردية (الشخصية، الذوق)	١	٨	—	—	٧	٧	٢٣
الوضع المدرسي	١	١	—	—	٩	٥	١٦
تثمين الدراسة	٤	٤	—	—	٢	٢	١٢
الوضع في الأسرة	—	٢	—	—	٩	٢	١٣
الإرجاع الى السن	—	—	—	—	٦	١	٧
يحدد نفسه بأخلاقه	٥	١	٤	١	٦	—	١٥
يحدد نفسه بديانته	١	—	—	١	١	—	٣
يحدد نفسه بمخطط حياته	١١	٩	٢	٦	٣	١	٣٢

نرى في الجدول المدرج أعلاه بندا عنوانه: «يحدد نفسه بمخطط حياته»؛ والواقع هو ان ٢٥ مراهقا (من أصل ٩٧ مراهقا) أدرجوا مشاريعهم المتعلقة بمستقبلهم ودمجوها في إجاباتهم (يبلغ عدد الإشارات ٣٢ إشارة، لأن بعضا من المراهقين أثار هذا المشروع على عدة مستويات من الاجابة). ونستطيع ان نبدي، في هذا الصدد، الملاحظات التالية:

ـ نستطيع ان نرى هنا تواصل تأثير تعليمات الأساتذة من إجابات المعالجة الانشائية الى إجابات الـ «من أنا؟» كما أسلفنا الاشارة الى ذلك أعلاه. ولنلاحظ ان هذه الموضوعة ظهرت، بصورة عامة، عند المستويين الثاني والثالث من الاجابة لا عند المستوى الأول الذي هو المحاولة الأكثر عفوية. وغالبا (لكن ليس في الحالات جميعها) ما يكون ثمة توافق وتواتر بين مخطط الحياة هذا وبين خصائص الأنا ـ المثالي.

ــ ان إدراج وإدماج مخططات المستقبل او الخطط الحياتية ومكاملتها مع تعريف الهوية وتحديدها، يجب ألا يدهشنا حين يرد في سياق المراهقة: «فالمراهقة هي اللحظة التي يبدو المستقبل فيها انه يقترب ويبدأ ان يصبح جزءا من مخطط الحياة الواعي.»(١٨)

ــ أفيكون الإسقاط على المستقبل وسيلة للافلات من إحباطات الحاضر؟ فالواقع هو ان طلاب مدرستي الأونروا (وخصوصا فتيات المجموعة الأكثر فقرا وإعوازا من وجهة نظر اجتماعية وثقافية) كانوا ابرز من اسهب في هذه الموضوعة.

فتــاة
مدرسة عين السلطان
ولدت سنة ١٩٧١
أصل أهلها من منطقة أريحا (لاجئون من الجيل الثاني)
مهنة الأب: مزارع
من أنا؟
١ ــ أنا هناء X (اسم العائلة).
٢ ــ أنا طالبة.
٣ ــ اريد ان اصبح ممرضة (مثالها الأعلى عمالي).

فتــاة
مدرسة رام الله
ولدت سنة ١٩٧٣
أصل أهلها من رام الله
مهنة الأب: دهّان

(١٨) Erick H. Erickson, *Enfance et Société*, Neuchâtel, Delachaux et Niestlé, 1966.

١ ــ أنا طالبة في الصف الاعدادي الثاني.
٢ ــ أنا عمري ١٥ سنة، أسكن في رام الله. وأنا احب ان اصبح (أطلع) ممرضة عندما أكبر (ومثالها ممرضة كذلك).
٣ ــ أنا أعيش مع اسرتي وأحبها كثيرا. لا يهمني ما يملكون، بل افتخر بأسرتي العزيزة.

ما يجتذب الانتباه إجمالا، حين ننظر الى هذا التوزع، هو واقعة كون مراهقي عقبة جبر لم يعطوا سوى القليل من التفاصيل عن هويتهم الفردية. فقد ابرز صبي وأربع بنات أخلاقهم، وأبرز صبي آخر تعلقه بديانته. وإذا كان ستة صبيان وفتاتان قد حددوا انفسهم بمخطط حياتهم، فان الموضوع كان بالنسبة الى خمسة صبيان وفتاة موضوع مخطط حياة ملتزمة (ان يصيروا فدائيين). وإنما هم مراهقو رام الله الذين أسهبوا في الكلام في هذه الموضوعات، وتحدثوا عن أذواقهم الخاصة ووضعهم المدرسي والعائلي وتعلقهم بالأخلاق.

فتــاة
مدرسة رام الله
ولدت سنة ١٩٧٤
أصل أهلها من رام الله
مهنة الأب: مدير مدرسة تعليم قيادة السيارات
١ ــ أنا إنسان عربي فلسطيني، ولد وفتح عينيه وهو يرى الظلم والقسوة والرعب والدماء في كل مكان.
٢ ــ أنا إنسان محروم من حنان الأب. مرض هذا الأب وأصيب بشلل نصفي وأنا في العاشرة.
٣ ــ أنا إنسان منذ صغري ارفض عادات ومبادىء وتقاليد المجتمع، والتفرقة بين الجنسين. وهذا الرفض يسبب لي المشاكل في حياتي اليومية؛ وهو موضوع المناقشات بين الأصدقاء.

فتـــاة

مدرسة رام الله

ولدت سنة ١٩٧٤

أصل أهلها غير مقروء

مهنة الأب: معلّم

١ ــ أنا طالبة مواظبة، تحب العلم وتضحي من أجله، لأن العلم هو المستقبل.

٢ ــ أنا فتاة تحب عائلتها، وتعمل كل ما في وسعها من أجلها.

٣ ــ اتمنى الحرية والاستقلال لبلادي.

الجدول رقم (٢٣)

توزع الموضوعات التفسيرية للقطب الجماعي للهوية

(لمستويات الإجابة الثلاثة مجتمعة، وتبعا للمدرسة والجنس)

	عين السلطان		عقبة جبر		رام الله		المجموع
	فتيات	صبيان	فتيات	صبيان	فتيات	صبيان	
مستعد للتضحية بالنفس	—	١	١	١	—	١	٤
يطالب بدولة فلسطينية	١	٢	—	٦	٤	٧	٢٠
شعور عميق بالاستلاب الحالي	—	—	٢	٨	—	٣	١٣
حب الوطن والانتماء الى الشعب الفلسطيني	٣	٣	١٠	٨	٤	٩	٣٧
يعيش الانتفاضة	—	—	—	—	٣	٢	٥
وصف سياسي للوضع	—	—	١	٣	—	١	٥
يعيش في وضع خطر	—	١	—	١	—	—	٢
إرجاع الى التزام شخصي حالي	—	٣	—	١	—	١	٥
إرجاع الى معركة الكرامة	—	—	—	١	—	—	١
إرجاع الى شهيد من الأسرة	—	—	١	—	—	—	١

يضيف شعرا / أنشودة	—	—	١	—	—	—	١
حب الأرض / زراعة	١	٥	١	—	—	١	٨
يطالب بالحرية عامة	—	٢	٣	٦	١	٣	١٥
الأمل بمستقبل أفضل	١	—	٣	—	—	—	٤
الانتماء الى القرية	١	—	—	١	٦	٤	١٢
التعلق بالوحدة العربية	—	٣	—	١	—	١	٥
تثمين الدراسة لهدف سياسي	—	—	—	—	١	٢	٣

ان الموضوعات التفسيرية المرتبطة بقطب الهوية الجماعي (المشاركة في قيم الهوية الفلسطينية) هي موضوعات متنوعة. وأكثر ما يورده المراهقون ويذكرونه هو حبهم للوطن، وشعورهم بالانتماء الى الشعب الفلسطيني (٣٧ إشارة مع احتلال مراهقي عقبة جبر مرتبة الصدارة):

«أنا فلسطيني، وسأظل فلسطينيا حتى آخر لحظة من عمري» (صبي، عين السلطان، المستوى الثالث من الإجابة عن سؤال «من أنا؟»).

يأتي بعد ذلك المطالبة الصريحة بإنشاء دولة فلسطينية. إذ وردت في ٢٠ إشارة:

«أنا احب بلادي، وأؤيد قضيتي؛ اؤيد قيام دولة مستقلة» (صبي، رام الله، المستوى الأول).

والمطالبة بالحرية قريبة جدا من الموضوعة السابقة، غير أنها لا تثير مسألة إنشاء الدولة بصورة مباشرة:

«أطالب بالحرية» (صبي، عين السلطان، المستوى الثاني).

أما الإحالات الاثنتا عشرة الى القرية (او المدينة) التي يقيمون فيها، فجاءت من جانب طلاب مدرسة رام الله الذين غالبا ما يذكرون مدينتهم بافتخار.

«أنا طالب فلسطيني يعيش في رام الله المحتلة» (صبي، رام الله، المستوى الثاني).

«أنا مواطن فلسطيني من رام الله البطلة» (صبي، مدرسة رام الله، المستوى الأول).

وبين طلاب مدرسة رام الله نجد الإرجاع الى الدراسة واكتساب المعارف كأداة لا غنى عنها في الكفاح من أجل التحرر:

«أنا طالب في مدرسة... في رام الله، وأدرس لأحارب اليهود بالعلم» (صبي، المستوى الأول).

«اعيش مع أبي وإخوتي وأخواتي، وأرغب في خدمة مجتمعي بالعلم عندما اصبح كبيرة» (فتاة، رام الله، المستوى الثالث).

وهناك عدد من المراهقين (معظمهم من عقبة جبر) يحددون انفسهم بشعور الاستلاب الحالي؛ وغالباً ما يضاف الى ذلك الخوف من الخطر. كما ان هذا الوصف للوضع يفضي بهم الى اتخاذ موقف وطني، والى تحليل سياسي:

«١ ــ اشعر بنفسي ضائعا بلا بلد ولا حرية، لقد دمروا بيوتنا وطردونا من بلادنا ومن أرضنا.

٢ ــ احب ان اعيش حرا وسعيدا.

٣ ــ اشعر بنفسي ضائعا بلا بلد ولا حرية، ولا أنام مخافة ان يعودوا» (صبي، عقبة جبر).

«١ ــ أنا مواطن عربي فلسطيني يرفض الاحتلال الصهيوني، ويرغب في التحرير بمعونة الله.

٢ ــ أنا مقاتل في وجه العدو الصهيوني، في الانتفاضة التي افتخر بها!

٣ ــ أنا فلسطيني يشعر بالضياع، ولدت تحت الاحتلال وعشت تحت الاحتلال، وحتى لو كان لي اب وأم فاني افقد اعز شيء على وجه الأرض: وطني العزيز! (فلسطين، كل حبي لها، وأنا مستعد للموت من أجلها!) » (صبي، رام الله).

اربعة مراهقين (فتاة وثلاثة صبيان) يقولون انهم مستعدون للموت من أجل فلسطين، وثلاثة صبيان يُرجعون الى التزامهم الشخصي الحالي(مع خمس إشارات).

نلاحظ، إذاً، ان أغلبية كبرى من المراهقين قد اعربت بمناسبة استمارة استبانة الهوية هذه، إعرابا خاصا، عن شعورها بالهوية الوطنية وتطلعاتها وقيمها، وشعورها بالاستلاب في الشروط والأوضاع السياسية الحالية، وثقتها بحل عادل للمشكلة الفلسطينية. وكما حدث في إجابات المعالجة الانشائية، اي الاجابات في شأن الأنا ــ المثالي، فان مراهقي عقبة جبر هم الذين أعربوا أوفى وأوفر إعراب عن هذه الموضوعات، يتبعهم هذه المرة طلاب مدرسة رام الله فطلاب عين السلطان. ولا بد هنا من ان نحاول فهم عدم التساوق هذا او التباين هذا، الذي نلاحظه أيضا ثاني مرة.

هناك ٢٧ استمارة هوية فقط من أصل الـ ٩٧ استمارة المملوءة، تخلو من تأكيد قاعدي أساسي او من موضوعة تفسيرية للقطب الجماعي للهوية. إنها اربع استمارات من رام الله، و٢٣ من عين السلطان. ولقد ملأ استمارات رام الله الأربع فتيات؛ أما الاستمارات الثلاث والعشرون الأخرى، فسبع منها لصبيان وست عشرة لفتيات. وبهذا، فان متوسط مؤشر التسيّس (لدى تحرير المعالجات الانشائية) لهذه الملفات السبعة والعشرين، هو ٣,٨١ مما يعني انه ادنى بوضوح من أرقام المعدلات المتوسطة المحسوبة بالنسبة الى مجمل الطلاب.(١٩) وهذه الأجوبة هي في الواقع ثلاثة وعشرون جوابا عن «من أنا» تعود الى مدرسة عين السلطان، وهي اجوبة وجيزة جدا تقوم، في غالب الأحيان، على تتابع ثلاثة تأكيدات أساسية ومبسطة للقطب الفردي للهوية. فالجواب هو من نوع: ١ ــ أنا طالب؛ ٢ ــ أنا زيد من الناس؛ ٣ ــ أنا صبي.

ومع ان المنحى كان أقل ظهورا لدى تحرير المعالجات الانشائية، إلا ان من الصحيح كذلك ان نصوص الأنا ــ المثالي لطلاب عين السلطان كانت أكثر ميلا كذلك الى القصر وأكثر تنميطا وتحجرا (stéréotypés)، وأوفى رعونة في الإنشاء وأكثر أخطاء إملائية.

---

(١٩) أنظر الجدولين ١٨ و ١٩ أعلاه، ص ١١٦ و ١١٧.

وعلى هذا فانه يبدو لنا ان في وسعنا، كي نفهم عدم التساوق او التباين الذي لاحظناه لدى فرز الاجابات، وذلك الذي أشرنا اليه منذ قليل لدى الحديث عن استبانات الهوية، ان نفترض الفرضيات التالية:

١ ــ **التوزع المختلف لأصول الأهل:** وقد أسلفنا القول ان النسبة المئوية للاجئين من الجيل الأول، بين الأهلين، كانت أكثر ارتفاعا في عقبة جبر منها في عين السلطان. ويمكننا الاعتقاد انه كلما كانت الصدمة التي تعيشها الأسرة (التهجير) تلامس المراهق عن كثب (أهله وليس أجداده فقط) نحا هذا المراهق نحو الاسراع في إثارة الظلم المُعاش واستخلاص نتائجه السياسية.

٢ ــ **الفارق في الوسط الاجتماعي ــ الثقافي:** والأمر هنا يتعلق، في كلا الحالين، بمستوى اجتماعي ــ ثقافي معوز. لكن خصائص الأجوبة تشير الى وجود فارق في المستوى بين صفي مدرستي الأونروا. ويفسر الاختلال الأدوي (اي فيما عنى الأداة)، جزئيا على الأقل، عدم التساوق او التباين القائم: فمراهقو عين السلطان يبدون أقل امتلاكا للكلمات وسيطرة عليها وعلى الأفكار، ولا سيما على التجريدات. أفيكون ذلك مصادفة ام انه ناتج من كون وسط العمال الزراعيين وسطا أكثر خشونة من وسط العمال غير المتخصصين؟

وفي اية حال، فاننا مهما نُعِد القول ونكرره فاننا لا نسرف في التذكير بأنه ينبغي لنا ألا ننسى ما نحن في صدد الكلام فيه: المسألة ليست مسألة ان نصنف المجموعات الثلاث بدءا بالأكثر وطنية اوقومية، او الأكثر نشاطية، وصولا الى الأقل نشاطية! فما كنا نحاوله هو مجرد معرفة هؤلاء المراهقين معرفة أفضل، وذلك بأن نطرح عليهم أسئلة مفتوحة (اي أسئلة لا يجيبون عنها بمجرد نعم اولا، اوبوضع علامة لاختيار جواب من عدة بدائل) تكون ذريعة ووسيلة لفهم قيمهم ومشاريعهم ومصالحهم ومخاوفهم وواقعهم المُعاش. وقد اغتنموا جميعهم الفرصة، باستثناء ثلاثة (هم ثلاث بنات كان مؤشرهن صفرا لدى تحرير المعالجة الانشائية، ولم يستخدموا لا تأكيدا جماعيا ولا موضوعة

تفسيرية للقطب الجماعي للهوية، اوللـ «من أنا؟») كي يؤكدوا بقوة هويتهم الفلسطينية وتأييدهم للصراع من أجل التحرير، حتى لو كان بعضهم قد قال ذلك بصورة أفضل من البعض الآخر، اي بسهولة اوفى وشاعرية أكبر.

خُلاصَة

كانت الغاية التي قصدنا اليها هي اكتشاف جيل الانتفاضة. وحاولنا ألا نجمد ونظل عند الكلام المعاد عن «قاذف الحجارة». لقد ذهبنا لملاقاة الأطفال والمراهقين الفلسطينيين بعيدا عن الأخبار المثيرة والأنباء الدرامية التي تحتل الأعمدة الأولى من الصحف، محاولين ان نتناولهم ككائنات من «لحم ودم»، اي في قوتهم وهشاشتهم، في آمالهم، وفي لحظات إحباطهم.

ونحن واعون، تمام الوعي، لحدود عملنا الذي لا يغطي عيِّنة تمثل الشبيبة الفلسطينية كلها، ويظل بالتالي سطحيا بالنظر الى الوقت الذي أمضيناه في الأراضي المحتلة. ومع هذا، فانه يبدو لنا أننا بتنا ننظر الآن الى «الطفل الممسك بالحجر» الذي أشرنا اليه في مدخل هذه الدراسة، بصورة اخرى: فقد بات أقل إلغاز، وأضحى كائنا ينبض بالحياة.

مرت عدة اشهر منذ لقائنا الأطفال والمراهقين. لكن الأمور لم تفعل سوى ان ازدادت سوءا منذ ذلك الحين. فعدد القتلى والجرحى والمساجين يزداد كل يوم مثلما يتعاظم عديد الشبان الذين يمرون بتجربة العقوبات الجماعية. وتظهر دراسة متأخرة[1] مدى الأضرار الناجمة عن هذا الوضع وحجمها. وهي ــ اي الدراسة المذكورة ــ تستند الى استمارات واستبانات ملأتها ٥٢٧ أسرة من مختلف مناطق الضفة الغربية وغزة، يسكن ٣٣,٥ ٪ منها في المدن، و ٢٩ ٪ في القرى، و ٣٥,٥ ٪ في المخيمات. وهي تنبىء، بين جملة ما تنبىء به، بالوتيرة الاحصائية لمختلف أنواع مواجهات الأطفال الذين

(١) مركز أبحاث رابطة الجامعيين في الخليل، «الانتفاضة والطفل الفلسطيني تحت الاحتلال». غير مطبوع، أيار/مايو ١٩٨٩.

تتراوح أعمارهم بين عامين وأربعة عشر عاما، مع سياسة القمع. وعلى سبيل المثال، فان ٧,٥ ٪ من أطفال العينة المذكورة قد فقدوا احد أفراد عائلتهم نتيجة إطلاق الجنود الاسرائيليين النار؛ و٥٣,٣ ٪ منهم كان لديهم قريب مسجون لحظة إجراء الاستقصاء؛ و ٦٧,٨ ٪ منهم شهدوا مشاهد عنف جرت ممارسته على أفراد عائلاتهم؛ و٧٧,٦ ٪ منهم عاشوا عملية مداهمة لبيوتهم؛ و٥,١ ٪ منهم دمر جيش الاحتلال منازلهم؛ و٣٢,٨ ٪ منهم كانوا في تاريخ إجراء الاستقصاء قد خضعوا لاستجواب يتعلق بإمكان مساهمتهم في الانتفاضة... وتؤكد الدراسة، من جهة اخرى، مشاعر القلق التي يشعر الأطفال بها في سياق القمع (وهكذا، مثلا، فانهم حين يرون دورية من الجيش تتقدم صوبهم، فان ٣٦,٦ ٪ من الأطفال يتخيلون أنها جاءت لتوقف احد أفراد اسرتهم). كما تؤكد وعيهم السياسي (١٧,٣ ٪ منهم يريدون ان يصبحوا «جنديا فلسطينيا»، و٢٥,٢ ٪ «طبيبا» و١٩,٥ ٪ «معلما»). وتشير الى «الزاد» النرجسي الذي يشكله، بالنسبة اليهم، الشعور بالمساهمة في مرحلة مهمة من مراحل حياة الشعب الفلسطيني، وتصميمهم على تحمل كل شيء، حتى «إلغاء الاحتلال».

وعلى هذا، فان العام الدراسي ١٩٨٧ ــ ١٩٨٨ ضاع! لكن الأمر لا يقتصر على ضياع عام دراسي واحد. فالعام الدراسي ١٩٨٨ ــ ١٩٨٩ حكم عليه هو الآخر بالضياع: فمدارس الأراضي المحتلة فتحت أبوابها في وقت متأخر (كانون الأول/ديسمبر). وما كاد المعلمون يحاولون وضع طلابهم في المستوى الذي تتطلبه صفوفهم حتى أعلنت السلطات الاسرائيلية، في ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٨٩، إقفال المدارس كافة، بما في ذلك مدارس الأونروا وكذلك، وبطبيعة الحال، الجامعات، لمدة غير محدودة. فكيف سيكون العام الدراسي ١٩٨٩ ــ ١٩٩٠؟ ان فرص إعادة إدراج هؤلاء الشبان في برنامج مدرسي ــ ثم بالنسبة الى المدى الأبعد ــ في برنامج إعداد وتكوين مهني، تتلاشى مع مرور الأشهر. فكيف تُرى سيبدو الغد لهم ضمن شروط كهذه؟

والحلول «التسكينية» حلول لا تقل صعوبة عن الأخرى: فتنظيم لجان الأحياء للتعليم في المنازل، جعلته سلطات الاحتلال عملا خارجا على القانون، مثلما تعتبر ان كل جهد يبذله الأهلون بهدف تنظيم انفسهم لمواجهة المحنة عملا تخريبيا. لكن تصميم الأهلين على المضي الى آخر الشوط لم يضعف، بل بالعكس؛ فتظاهرات الوطنية الفلسطينية تتصاعد بينما يزداد التوتر مع المستوطنين في الأراضي المحتلة.

كيف يمكن ان نصنف بالتسلسل حاجات الأطفال والمراهقين، وأية وسائل نحوز؟

نبدأ بالاشارة الى فئة خاصة جدا من الأطفال والمراهقين الذين يتعرضون لمخاطر جسيمة، في سياق الانتفاضة، لكنهم لا يزالون يملكون حتى الآن حظوظا لجهة إيجاد حلول لهم ـ عنينا الأيتام. وتتولى الأيتامَ مؤسستان فلسطينيتان تقومان بعمل هائل، وفي أوضاع صعبة في الغالب. وتقف على رأس المؤسستين شخصيتان بالغتا النشاط داخل المتحد الفلسطيني، هما: السيدة هند الحسيني، والسيدة سميحة خليل (وتدعى أيضا ام خليل).

والسيدة الحسيني هي مؤسِّسة دار الطفل العربي ورئيستها. ويرجع تأسيس هذه الدار الى سنة ١٩٤٨. وقد جرى فتحها لاستقبال أطفال دير ياسين.[٢] ويشير تقرير نشاطات هذه المؤسسة لسنة ١٩٨٧ الى وجود ٢٣٨ يتيما لديها، لكنها تتولى كذلك تربية عدد كبير من الحالات الاجتماعية. والواقع ان دار الطفل ليست مجرد مقر إقامة للأطفال، لأنها طورت كذلك نشاطات ثقافية وبرنامجا تربويا؛ ففي وسع الطفل ان يتابع هنا دراسته كلها، ابتداء من الحضانة الى المرحلة ما بعد الثانوية (في كلية الآداب للبنات بفروعها الثلاثة: اللغة العربية، واللغة الانكليزية، و«العمل الاجتماعي»)، مرورا بروضة الأطفال والمرحلة الابتدائية والتكميلية والثانوية. ويجد الطلبة الداخليون في الدار، في تصرفهم، مكتبة ومنتدى ألعاب. كما تقدم الدار

---

(٢) أنظر أعلاه، ص ١٣.

دروسا في الخياطة والتخريم (تتابع التقليد المعروف في الزخارف والنماذج التخريمية الفلسطينية)، مثلما تقدم دروسا في محو الأمية. وتجد دار الطفل نفسها، شأن المؤسسات الفلسطينية كافة، مدعوة الى مواجهة الصعوبات العديدة التي تعترضها كي تتمكن من العمل بأكثر صورة طبيعية ممكنة داخل سياق الانتفاضة.

أما السيدة سميحة خليل فتتولى رئاسة جمعية «إنعاش الأسرة» التي جرى إنشاؤها سنة ١٩٦٥. وكانت تستقبل، في البداية، الشابات الراغبات في تعلم الخياطة والتخريم. كما كانت تقدم دروسا في محو الأمية. غير ان برامج الإعداد تنوعت كثيرا بعد ذلك، بحيث جرى إنشاء مشاغل لإيجاد فرص عمل للعاملات الشابات اللاتي انهين إعدادهن، وكذلك لإيجاد موارد دخل لأكثر الأسر إعوازا. كما ان الجمعية تشدد، كذلك، على اهمية حفظ التراث الثقافي. وقد جرى فتح روضة أطفال سنة ١٩٦٧، تستقبل حاليا ١٥٠ طفلا. أما الميتم ومركز التمريض فجرى إنشاؤهما مؤخرا. فالميتم بدأ العمل سنة ١٩٨٤، وهو يؤوي حاليا ٨٥ فتاة. وباستثناء هذين الفرعين، فان السلطات العسكرية جمّدت في حزيران/ يونيو ١٩٨٨ نشاطات الجمعية الأخرى لمدة عامين.

تأتي بعد ذلك فئة ثانية من الأطفال والمراهقين المعرضين (اي المرشحين لتنامي الاضطرابات عندهم)؛ انهم أولئك الذين تعرضوا لتجربة فظة قاسية خلّفت جرحا نفسيا، ومن شأنها ان تفضي الى اضطرابات سريرية يمكن ان تتفاعل مع حدة الوضع المُعاش. ونحن ندخل هنا في نطاق العُصاب الصدماتي، او عُصاب الجروح («névroses traumatiques») الذي يدعى في مصنف تشخيص وإحصاء الاضطرابات الثالث،(٣) «الضغط او توتر ما بعد الجرح» («états de stress post-traumatique»). والمقصود بذلك هو تلك

(٣) *Manuel diagnostique et statistique des troubles mentaux. D.S.M. III.* Ed., A.P.A., 1980. Trad. P. Michot, Masson, 1983.

الحالات التي نصادفها لدى الراشدين ولدى الأطفال، والتي يصفها المصنف المذكور كما يلي: «الخاصية الأساسية هي تنامي أعراض انموذجية تأتي في إثـر حدث يشكل نفسانيا صدمة وجرحا، ويكون عامة خارجا عن المألـوف. وتشمل هذه الأعراض انبعاث الحدث واضمحلال القابلية على ردة الفعل او تقلص الاحتكاك مـع العالم الخارجي والصلة به، كما تشمل أعراضا تتعلق بعسر النطق وأخرى تنال من الجهاز العصبـي الذي ينظم الحياة النباتية، فضلا عن أعراض معرفية متنوعة. ويتسبب الحدث الضاغط الذي هو في أصل «التناذر» (syndrome) (او تزامن أعراض مرض من الأمراض) بأعراض ضيق لدى معظم الأفراد ويتجاوز في الغالب نطاق التجارب الجامعة العامة مثل الحداد والمرض المزمن وانتكاس الأعمال او النزاعات الزوجية. ويمكن ان يكون الشخص وحيدا في تلقي الجرح (اغتصاب او هجوم)، او يتلقاه داخل جماعة (حرب). ونستطيـع ان نذكر من الأحداث الضاغطة المحدثة لهذه الاضطرابات، الكوارث الطبيعية (. . .)، والكوارث التي يتسبب الأشخاص بها عرضا (. . .)، او الكوارث التي يتسببون بها عمدا (التلغيم، والتعذيب، ومعسكرات الموت). . . والظاهر ان الاضطراب يكون أكثر قسوة وأطول دواما عندما يكون الانسان سبب الحدث الضاغط او المولد للضغط.»

وقد أثار الأطباء وأطباء الأطفال، الذين التقيناهم عفوا، أمامنا حالات اضطرابات من هذه الفئة، لاحظوها لدى أطفال (أطفال ضربهم الجنود مثلا ودخلوا المستشفى بكسور في أطرافهم: انكفاء من العالم الخارجي، خمول او بـالعكس أزمـات هلـع، صعـوبـات نـوم، فترات شلل لـلأعضـاء الداخلية. . .). غير ان من البديهي انه لا يسعنا ان نتوقـع ان تحضر العائلات المعنية تلقائيا لتنقل التطورات النفسانية ـ المرضية، وتطلب المعونة! فمثل هذا السلوك يتطلب ثقافة طبية ـ نفسية لا يملكها الأهل، بل ان الأطباء غير النفسانيين هم انفسهم لا يملكون الإعداد للتعرف الى هذه الظاهرات، ناهيك بمعالجتها. وعلى هذا، فانه يحق للمرء ان يخشى استقرار هذه الظاهرات كافة على صورة مزمنة تعرّض نمو الطفل النفساني وقدراته على التكيف بصورة

نهائية. وكثير من الأوضاع التي تناهت الينا، بدا لنا مؤهلا للإفضاء الى تنامي مثل هذه المرضية وتطورها. وليس لنا هنا ان نعدد الشهادات الكثيرة الموثقة المتوفرة، والتي نستطيع ان نعيد اليها ونحيل عليها.(٤) وفي اية حال، فانه ينبغي لنا ان نضيف الى الصدمات والجروح النفسانية الحادة، مراكمات «الجروح الصغرى» («mini traumas») («الجروح المتراكمة» / «trauma cumulatif»)(٥) التي تنتهي بأن تعمل كجرح نفسي حاد. ولا نشير هنا الى بعض الأمثلة إلا بمقدار ما أنها تساعدنا على محاولة فهم الدلالة التي يتخذها الحدث، والتي تجعله مولدا للجرح لدى الطفل.

نأخذ، بادىء ذي بدء، حالة الأطفال والمراهقين المعتقلين في السجون الاسرائيلية. وهذه الواقعة ليست جديدة: فقد كان ثمة قبل الانتفاضة أحداثٌ تتدنى أعمارهم عن ثمانية عشر عاما، معتقلين كسجناء سياسيين في السجون الاسرائيلية، لكن هذه الظاهرة اتسعت كثيرا منذ خمسة عَشَر شهرا. (٦) وإذا ما وضعنا شروط الاعتقال الصعبة والمعاملة الفظة جانبا، فانه يبدو لنا ان عيش «القطيعة» بالذات(٧) هو أكثر ما يصدم ويولد الجرح لدى

---

(٤) أنظر، بصورة خاصة، باب «قمع» في كل عدد من أعداد *Revue d'études palestiniennes*، حيث يُروى يوما بيوم ومنذ بداية الانتفاضة، مختلف وجوه القمع (التوقيف، الاقامة الجبرية، الطرد، السجن، العقوبات الجماعية، المساكن المقفلة أو التي يجري نسفها، تجاوزات المستوطنين، إلخ)، مع الاشارة الى المصادر المستخدمة (والتي هي، في معظمها، مصادر صحافية، اي من الصحافة الاسرائيلية ووكالات الصحافة الدولية).

(٥) أنظر:

Claude Barrois, *les Névroses traumatiques*, Paris, Dunod, 1988.

(٦) أنظر تقرير ليديا كتّاب، عضو مؤسسة الحق/القانون من أجل الانسان، المتعلق بـ «وضع الأطفال الذين تسجنهم اسرائيل»، وذلك في:

Revue d'études palestiniennes, n° 17, automne 1985.

(٧) أنظر: Barrois, *op. cit.*, pp. 154-170.

الطفل.[٨] فهناك قطيعة على عدة مستويات: الانفصال عن الوسط العائلي؛ إقتلاع الطفولة وانتزاعها صوب عالم الراشدين (وخصوصا ان الأطفال يعتقلون غالبا مع الراشدين)؛ فقدان التوازن السابق حيث كان الطفل يثق بقدرات وسطه على ان يؤمن له حدا أدنى من الأمن واحترام حقوقه. والدلالة هي ذاتها بالنسبة الى الطفل الذي يضربه الجندي أمام أهله، او ينتزع منهم ليخضع لاستجواب، او الذي يشهد تفجير منزله في إطار عقوبة جماعية: يُواجَه الطفل، بصورة فظة، بتبدد أوهامه ويتعرف تعرفا سابقا لأوانه الى تجربة الوحدة. وهو لن يستطيع بعد الآن مواصلة تغذية وهم قدرة الأهل الكلّيي الاستطاعة، والحاضرين أبدا لحمايته. فالحدث الجرحي (l'événement traumatique) هو بمثابة طقس من طقوس التلقين يأتي بسرعة بالغة ومن دون تحضير. ولا حاجة بنا هنا الى القول ان الطفل يمكن ان يفقد، فضلا عن أوهام طفولته، مأواه ووظيفة عضو من أعضائه او عينه... وأن يجد نفسه مواجها بتهديد مباشر بالموت!

وأحد أول المؤشرات التي تدل على ان طفلا (او راشدا) يمكن ان يطور مرضية تفاعلية إزاء واقع مُعاش جارح، يكمن في تحليل محتوى الأحلام: وأحدُ معايير التشخيص التي يعتمدها لا مصنف التشخيص والاحصاء الثالث فحسب وإنما مجمل علماء النفس السريري المهتمين بعصاب الجرح او العصاب الصدماتي، يكمن في واقعة أننا نجد ذكريات تكرارية طاغية للحدث، وأحلاما تكرارية تعيد اليه: «الحدث هو الأمر الذي يتذكر نفسه، ويظهر كدخيل مضطَهِد.»[٩] ولنتذكر ما كان يقوله أطفال البيرة لنا عن أحلامهم!

ينبغي لنا، كذلك، ألا ننسى واقع «القطيعة» المُعاش لجميع الأطفال الذين جرى وضع أهليهم في وضع مولد للجروح النفسية: فاذا جرى توقيف احد الأبوين او سجنه او ضربه، او تعرض مرات متكررة لتنكيل

---

(٨) محتوى «القطيعة» يكون مختلفا عند الراشد.

(٩) Barrois, *op. cit.*, p. 199.

الجيش، أفتراه يستطيع بعد ذلك أن يظل متوفرا لطفله ولتجنيبه نتائج صدمته هو نفسه؟ وأخيرا، فانه إذا كان إجماع الباحثين لم يتحقق فعلا على النتائج التي ترتب على الطفل نتيجة مشاهدته مشاهد عنف، فاننا لا نستطيع إلا ان نشعر بالقلق إزاء التطورات اللاحقة: «هل ان واقعة معاينة مشاهد عنف تفضي بالناس العاديين الى ان يشعروا بأنهم هم انفسهم عنيفون، او ان هذه المشاهدة للعنف لا تفعل سوى ان تسقط الإعاقات والكوابح الداخلية لأولئك الذين يعانون، واعين او لاواعين، نزواتهم ودوافعهم العنيفة؟ . . . ان مشاهدة أفعال عنف تسقط إعاقات العنف وكوابحه، لكنها لا تثير العنف ولا تحدثه.»(١٠)

ان هدف هذه التحاليل ليس الرد بعملية «نفسنة» (psychiatrisation) على مشكلات سياسية، كما ان الباعث عليها ليس الأمل الطوباوي بأن التنديد بالصدمات والجروح النفسية التي يعيشها الأطفال، سوف يوقف الانتهاكات! بل المسألة هي مجرد البدء بعملية تفكير في شأن الاتجاهات التي يمكن ان تتجه اليها الأبحاث او الأعمال اللاحقة بهدف مساعدة هؤلاء الأطفال في الخروج بأقل سوء ممكن من شهور المواجهة الطويلة، ومن التجارب التي يعيشونها والتي تظل ــ حتى لو أمكنها ان تكون مثيرة أحيانا، وخصوصا بالنسبة الى المراهقين ــ تقول انها تبقى مثقلة بالنتائج النفسية الرازحة.

ان الأطباء النفسيين وأطباء الأطفال والمعلمين والأهلين يشعرون جميعهم، كل على مستوى تدخله النوعي، بالحاجة الى ان يتسلحوا تسلحا أفضل كي يتمكنوا من تقديم الدعم الذي يحتاج الأطفال اليه. والعمل الذي ينتظر هؤلاء شاسع هائل؛ كما لا بد من مرور أعوام عديدة قبل ان تتلاشى آثار الأحداث الحالية. وطب الحرب النفسي لا يزال حتى في الدول التي يقال انها غنية، أفقر

---

(١٠) A. Storr, «Sadism and Paranoïa. Cruelty as Collective and Individual Response,» in *Agression and Anti-Social Behaviour in Childhood and Adolescence*, ed. by L. A. Hersov and M. Berger (London: Pergamon Press, 1978); A. Louyot, *Gosses de guerre*, Paris, Robert Laffont, 1989.

أقارب الطب النفسي. وإنما بدأ تطوير برامج في هذا الاتجاه بصورة متأخرة جدا، وخصوصا في الولايات المتحدة حيث جرى تأسيس جمعية دراسات للضغط المولد للجروح النفسية (Society for Traumatic Stress Studies)، سنة ١٩٨٥. وفي حين ان الدراسات كانت تتركز، في البداية، على علم مرض حرب المقاتلين (الحربان العالميتان العظميان، ثم حرب فيتنام)، فانها باتت تتعلق الآن بأوضاع مولدة للجروح بالغة التنوع: الكوارث الطبيعية (ردات فعل الأهلين إزاء الزلازل، وإزاء الأعاصير)، آلام المدنيين، والأطفال بخاصة (في ايرلندا، وفي مخيمات اللاجئين في آسيا). وقد أتاحت هذه الدراسات استخلاص خطوط سلوك عامة للتقيد بها، تلافيا لحدوث نتائج نفسية ذات دوام.(١١)

ويتفق المؤلفون على القول ان على من يقدمون المساعدة ان يذهبوا لملاقاة من يحتاجون الى خدماتهم، اي ان يتبينوا «زبائنهم» المحتملين ويحيطوا بالأهلين المعرضين للخطر.

وهم يؤكدون، جميعا، واقعة ان الطفل «الذي لا يبدي ردة فعل» ليس بالضرورة الطفل الذي يتحمل الوضع أفضل من سواه: فالطفل الذي يواجه الوضع بصورة متكيفة، يبيح لنفسه ان يعرب عن قلقه وحقده وعدوانيته.

وثمة استراتيجيتان يجب اعتمادهما بصورة متلازمة عندما يبدو ان حالة ضغط تالية للجرح النفسي في صدد ان تستقر: إعطاء الطفل وسائل استخراج ذكرياته وقلقه وتظهيرهما، وتزويده بإطار من شأنه مساعدته في إعادة هيكلة

---

(١١) أنظر، على سبيل المثال:

George H. Grosser, Henry Wechsler and Milton Greenblatt, editors, *The Threat of Impending Disaster: Contributions to the Psychology of Stress* (The M.I.T. Press, 1964); Mary H. Lystad, «Children's Responses to Disaster: Family Implications,» in *International Journal of Family Psychiatry*, Vol. 5 (I), 1984, pp. 41-60; Yolanda Martinez y Aguilar, «Les tremblements de terre au Mexique en 1985, leurs répercussions psychologiques et l'intervention des psychanalystes», in *la Psychiatrie de l'enfant*, I / 1987, vol. XXX.

نفسه. وقوام الاستراتيجية الأولى، او المسعى الأول، هـو تقليص الضغط بإعطاء الطفل وسائل ان يحكي ويصف بطريقته الوضـع او الأوضاع التي عانى من عيشها، وأن يخرج مخرج الكلام المؤثرات الأولية التي أمكنه الشعور بها تلك اللحظة (انطلاقا من مواد متنوعة ومتلائمة مـع عمره: أقلام رصاص، ورق، معجون تشكيلي، دمى، محادثة. . .). أما المسعى الثاني، فيترك حيز مشاركة اوسـع لأسرة الطفل: فالمسألة هنا هي مساعدة الطفل على وضـع مشاعره في السياق العائلي، في كلمات وإخراجها مخرج الكلام، وعلى إعادة انخراطه في النسيـج العلائقي الموفر للأمن والذي أعوزه لحظة حدوث الفجوة المعتمة الكبرى، عنينا الجرح النفسي، وإعطاؤه الوسائل المعرفية لفهم ما يجري حوله.

يملك الطفل الفلسطيني أوراقا رابحة تمكنه من منافحة جروحه النفسية: انه تراثُ المكابدة وسُنَّةُ المجالدة التي استنتها أسرته منذ عقود، عبر تاريخها المؤلم، ألا وهي قـوة النظام العـائلي والتمـاسك الاجتمـاعي. والتماسـك الاجتماعي كان النتيجة اللازمة لتنظيم اجتماعي تقليدي تعزز، مجددا، تحت دفـع الانتفاضة، وكردة فعل على قسوة سياسة القمـع. وإنمـا هوتـطبيق العقوبات الجماعية بخاصة، الذي عزز شعور التضامن العام، حيث بات كل فرد يملك الانطباع بأنه يعيش شأن الآخرين تحت طائلة تهديد دائم. ونجد في الأدبيات وصفا لردة فعل الفريق او الجماعة التي تواجـه تهديـدا او تجسد تهديدا: «ففي أوضاع كهذه، غالبا ما تتنامى وتتطور أشكال وصيـغ دفاع جماعي جديدة. . . ان مفهوم الدفاعات المشتركة او المتشاطرة تلقائيا (بصورة جماعية) هو مفهوم أساسي لفهم بعض ردود الفريق او الجماعة على تهديد اي خطر وشيك. ويصـح هذا الكلام، على نحو خاص، عندما يكون التهديد ثابتا وغـامضا.»[١٢] والملاحظة تظل هي ذاتها بعـد تجسد الخـطر: «وقد

(١٢) Kurt Lang and Gladys Engel Lang, «Collective Responses to the Threat of Disaster,» in Grosser, *op. cit.*, pp. 64-65.

ظهرت، بين باقي السكان، مشاعر بالحماية والتماهي والتعويض والمسؤولية إزاء من منيوا بخسائر وأضرار، كما بذلوا نشاطا كثيفا مهما.»[١٣] وهذا ما قدر لنا ان نلاحظه، وعلى نطاق واسع، فيما عنى أهالي الضفة الغربية وغزة.

ثم ان الجماعة، بتضامنها المتزايد، لم تصبح اقدر على دعم ذلك البعض من أفرادها الذي «يتساقط» عصبيا فحسب، بل ان الحالة المرضية الغادرة التي كانت منتشرة أصلا وعلى نطاق واسع بين الراشدين، تبدو وفقا لشهادات الأطباء الذين التقيناهم أنها تراجعت تراجعا مرموقا: عنينا المظاهر النفسانية ـ الجسدية المزمنة التي كانت تعبيرا عن الضيق المبثوث، واليأس ومراكمة الإحباطات (أوجاع الرأس والمعدة والإمعاء...). لقد عثر الفلسطينيون، عبر الانتفاضة، على صورة ذاتية إيجابية. ولم يعد الدعم المتماهي الذي يقدمونه لأطفالهم دعم «المُحْتلّ» الذي يتلقى الضربات حاني الرأس؛ فالانتفاضة حولت «المتفرجين الذين تسحقهم هامشيتهم، لا أساسيتهم، الى فاعلين متميزين، أدركهم إشعاع التاريخ إدراكا عظيما.»[١٤] وما يزيد في إيجابية المسار الجديد، لجهة النمو والتطور المعنوي للجيل الجديد، هو ان المقاومة عرفت كيف تظل حتى الآن مقاومة «مدنية»، وعرفت كيف تتلافى التجاوزات العمياء. لكن، حتى متى سيظل هذا التحكم ممكنا إذا لم يبدأ الفلسطينيون قطف ثمار نضالهم؟

أما الورقة الرابحة الثانية، التي يمتلكها الطفل الفلسطيني لمواجهة التوتر والضغط النفسيين، فهي تجهيزه المعرفي: فهو ليس في وضع من يعيش بصورة سلبية مأساة ظالمة لا يفهمها. فقد رأينا طوال مختلف أشكال لقاءاتنا مع الأطفال والمراهقين، انهم يموضعون انفسهم داخل نزاع يعتبرون انفسهم «طرفا» فيه. وبالتالي، ان لديهم وعيا سياسيا ووعيا حادا لهويتهم

---

(١٣) Yolanda Martinez y Aguilar, *op. cit.*, p. 216.

(١٤) Frantz Fanon, *les Damnés de la terre*, Paris, Maspero, 1968, p. 6.

الفلسطينية.(١٥) ويفضي هذا الوعي بصورة طبيعية جدا الى عمل، الى معركة تخاض، وخصوصا ان الآخرين ينكرون هذه الهوية. كما ان هذا الوعي يقدم لهم دعامة قوية تتيح لهم التسامي بقلقهم.

ان مصدر قوة الطفل والمراهق الفلسطيني هو أنهما تقمصا هويتهما الفلسطينية (مع ما يفترضه ذلك من وعي تاريخي وسياسي)، وهما يضطلعان بنتائج ذلك: فهما لا يضعان المسار النضالي الذي التزمته الجماعة موضع تساؤل، ذلك بأنهما يريان رأي العين لا براهين المظالم السالفة فحسب، بل أيضا الشهادة المتجددة أبدا على المظالم الراهنة.

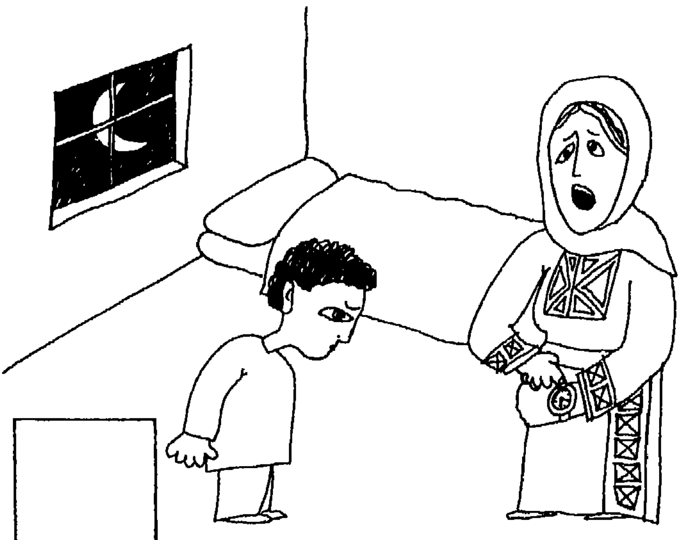
---

(١٥) أنظر:

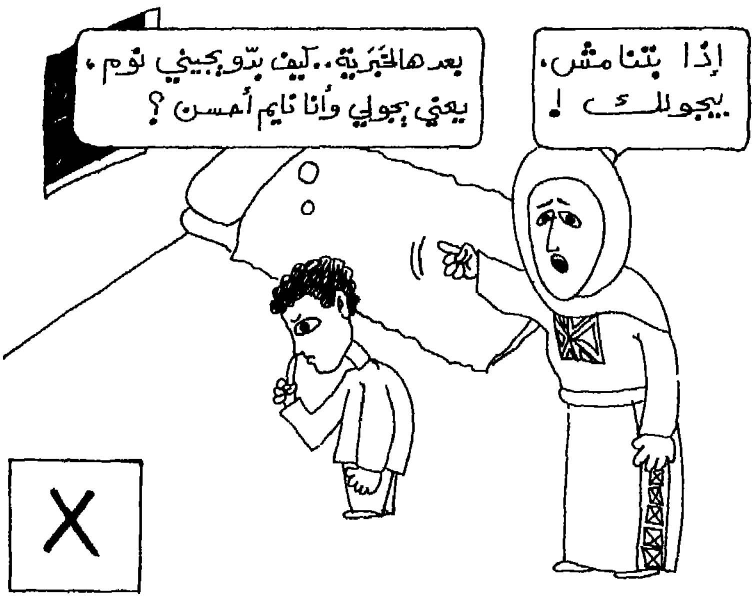
Carmel Camilleri, «Les étudiants étrangers en France et leur discours sur l'identité culturelle», in *Bulletin de psychologie*, Tome XXXVII, n° 364.

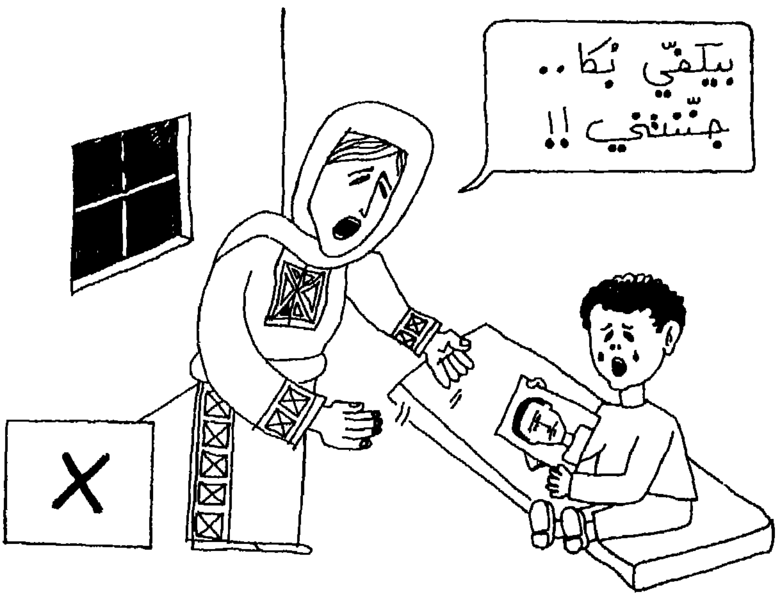
مـــلاحِـــق

- مشاريع ملصقات لمركز التوثيق للأطفال (القدس).
- رسوم أطفال الحارة.
- صور أطفال فوتوغرافية.



• يرفض الطفل الذهاب الى النوم بعد أن ذكّرته امه بذلك •


إذا بتنامش، بيجوللك !
بعد هالخبرية.. كيف بدو يجيني نوم، يعني يجولي وأنا نايم أحسن ؟


بيكفّي بُكا .. جنّنتني !!

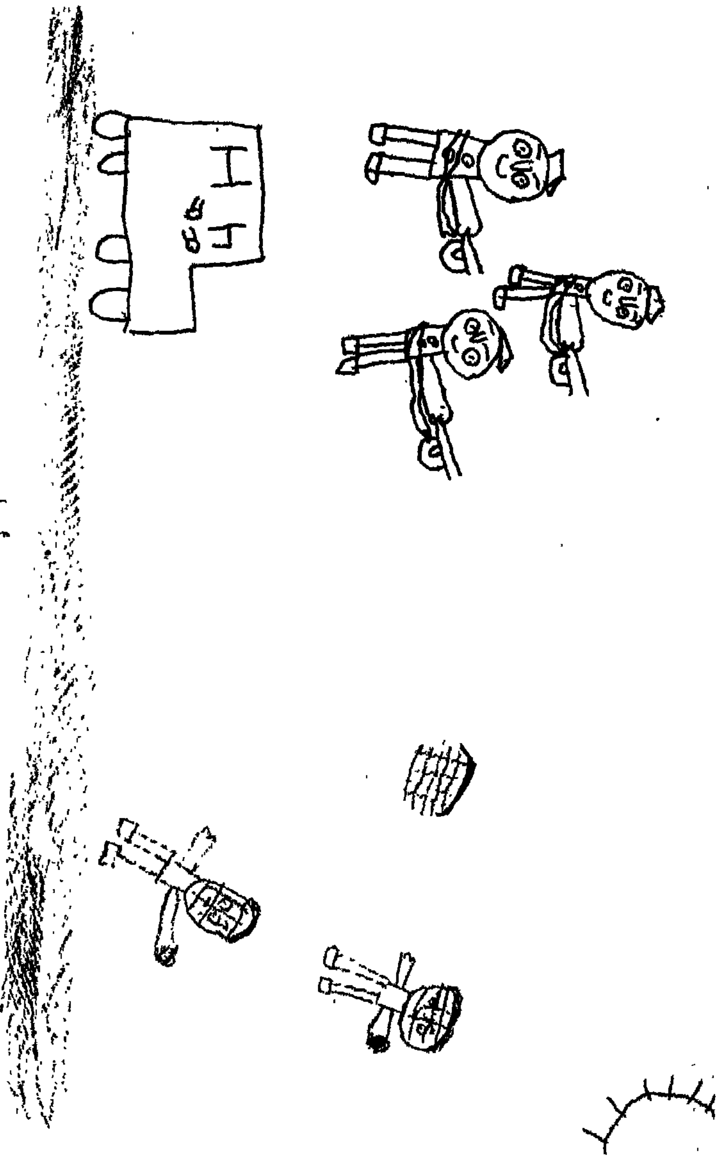

أنا عارفة انت ليش زِعلان يمّا ،
انت زعلان على أَخوك ،
واحنا كمان زعلانين كتير
ومشتاقين له كتير..


زيح عن الشّبّاك ،
هلّق بيشوفونا ، فَبيهجموا علينا!

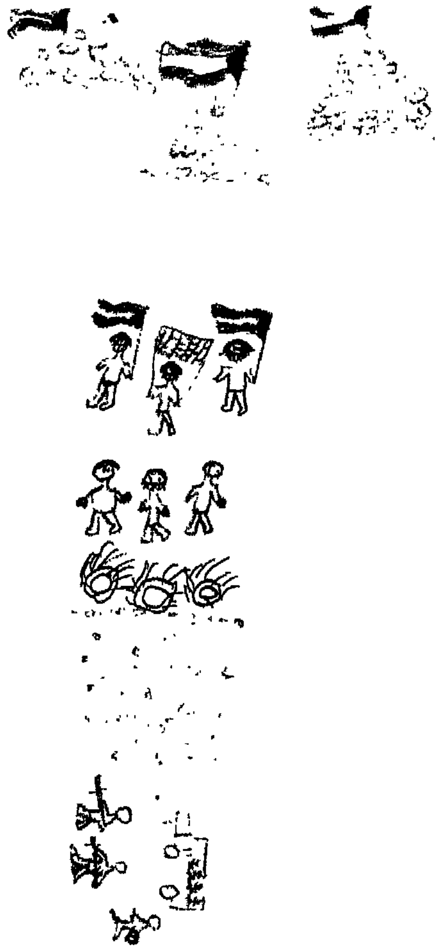

لا تخاف يمّا ،
أنا صوتت معك !


قلت لك خلّيك في البيت وما تطلعش برّه!
X
• الطفل يدخل إلى البيت مسرعًا، خائفًا •

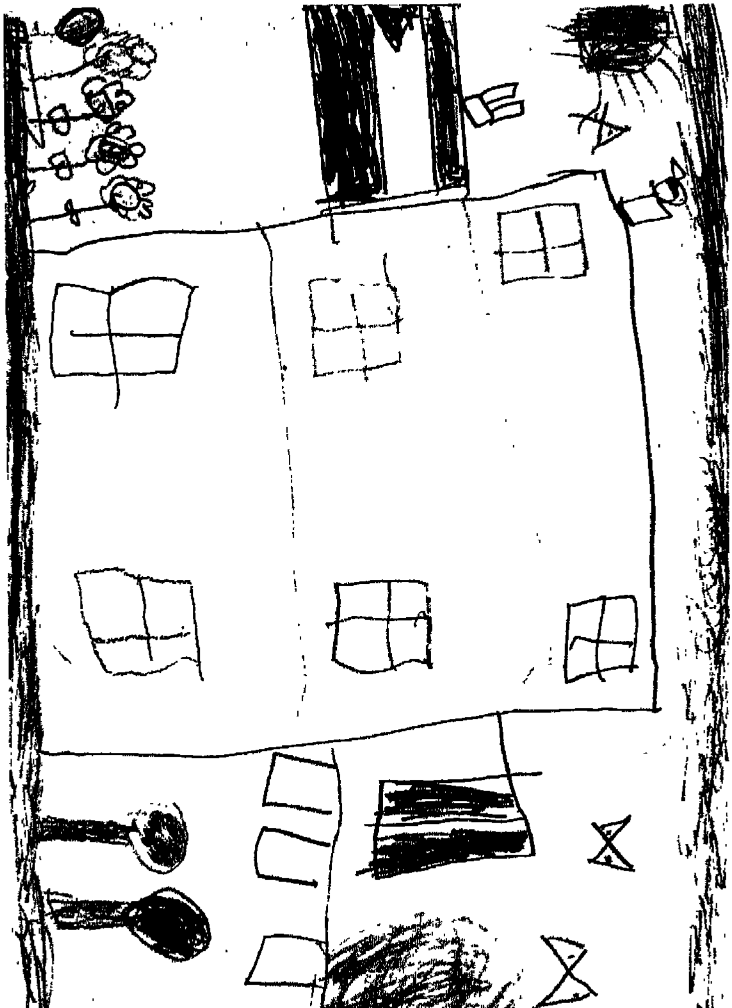

اسم الله عليك ، مالك خايف
تعال احكي لي شو صار ،
شو شفت ؟



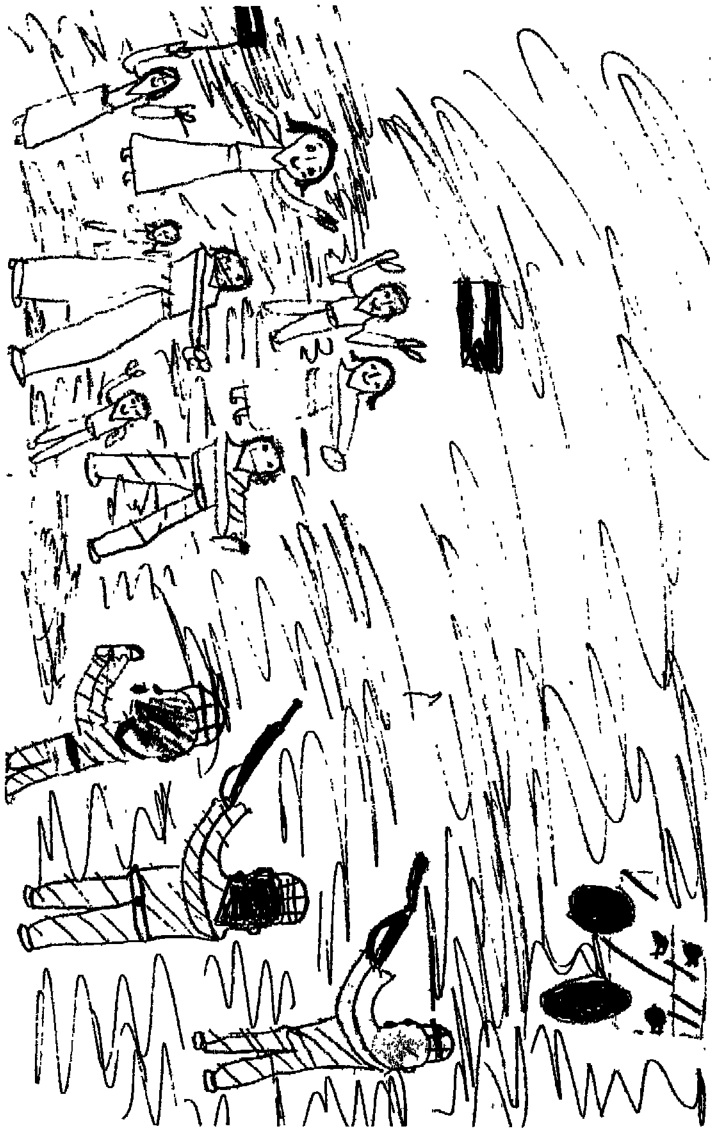
سوزن ٨ أعوام



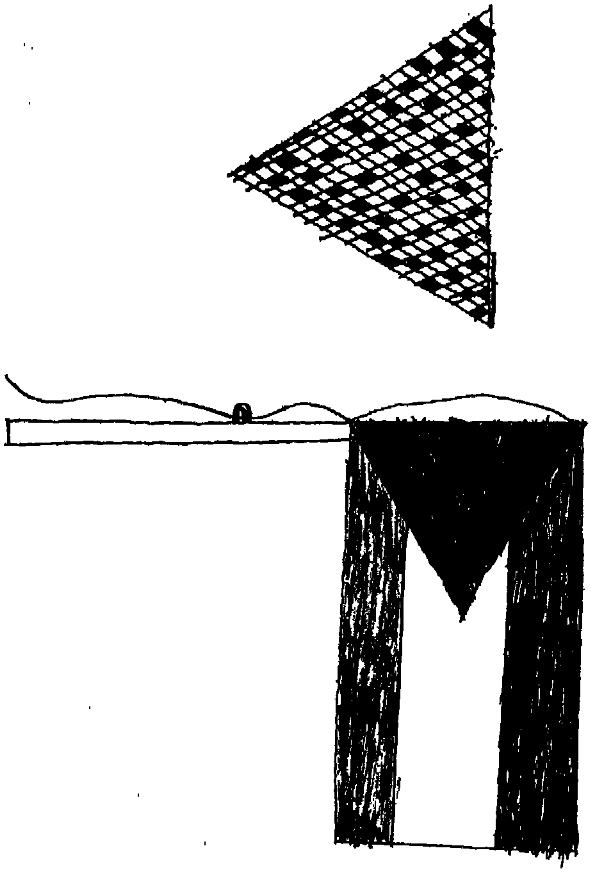
علوح، ١٠ أعوام ونصف العام



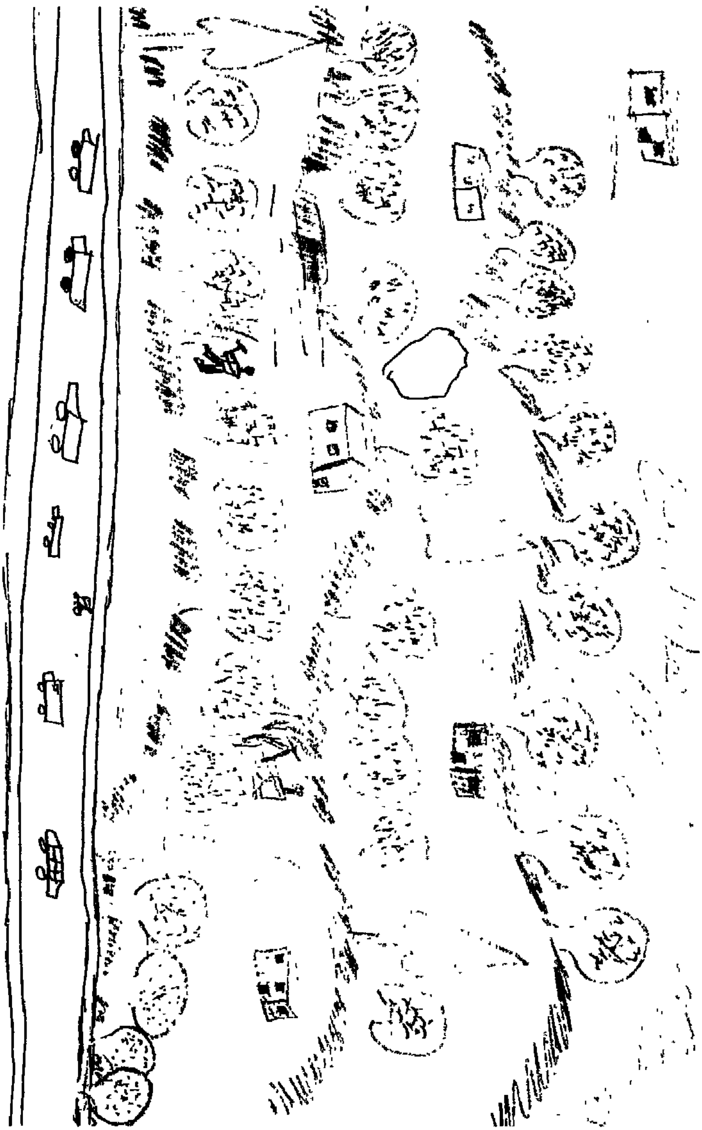
ماهر، ١٠ أعوام



سيرين، ١١ عاما ونصف العام



فادي، ١٢ عاما



أيمن ، ثمانية



راونك ، ١٢ عاما



طفل وحجر (أنظر صفحة ٤)





أولاد الحارة





أولاد الحارة



ملعب كرة القدم في الحارة



أطفال في أريحا



أطفال في مخيم عقبة جبر



في مدرسة مخيم عين السلطان





في مدرسة مخيم عين السلطان



أطفال في غزة



في باحة مستشفى غزة



في أريحا